أعلام العَرَبْ

٦١

جمالُ الدّين الأفغاني

باعث نهضة الشرق

١٨٣٨ - ١٨٩٧

بقلم
المؤرخ الكبير
عبد الرحمن الرافعي

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

مقدمة

تمر السنون وتتعاقب الأيام . وذكرى جمال الدين الأفغانى خالدة تتجدد فى النفوس كباعث نهضة الشرق .

اذا ذكر الزعماء والمصلحون فى الشرق كان هو رائدهم وكان فى طليعتهم . نهض والناس نيام . فكانت دعوته أول نداء دوى فى الآفاق . أهاب بالأمم الشرقية أن تتحد وتتعاون . وتحارب الاستعمار وتقاومه . وتحذر أساليبه ومكايده . وأن تتخلص من النظم الاستبدادية الداخلية التى درج عليها الملوك والرؤساء ، وتحرر العقول والعقائد من نزعات الجمود والركود ، وتنطلق الى آفاق الحرية والعلم . واليقظة والرقى . فكانت دعوته التى عاش عليها ومات من أجلها بداية النهضات التى شملت أقطارا عديدة جابها . وغرس فيها أفكاره ومبادئه ، وكانت مبعث الحركات القومية التى ظهرت فى أرجاء الشرق حينا بعد حين . خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

ظل الشرق قرونا وأجيالا رازحا تحت نير الجمود الفكرى ، والتأخر العلمى . والاستعباد السياسى . وبقى فى سبات عميق. الى أن قيض الله له الحكيم الأفغانى « جمال الدين » فنفخ فيه روح اليقظة والحياة . وأهاب بالنفوس أن تنهض وتتحرك ، وبالعقول أن تستيقظ ، وبالأمم والجماعات أن تتطلع الى الحرية ، فكانت رسالته الى الشرق مبعث نهضته الحديثة .

واذا أردنا أن نتبين فى كلمة عامة فضل جمال الدين ، ومدى الرسالة التى أداها ، فلنذكر أنه كان فى حياته مصلحا دينيا ،

وفيلسوفا حكيما ، وزعيما سياسيا ، فجمع بين الزعامات الروحية، والفكرية ، والسياسية ، واضطلع بهما معـــا ، فأدى من الناحية الدينية مهمة الاصلاح والتجديد التى أدى مثلهـــا مارتان لوثير للمسيحية ، وأهاب بالأمم الاسلامية أن تفهم الاسلام على حقيقته ، وترجع الى مبادئه الصحيحة ، وفطرته الأولى ، وتطهره من الأوهام والخرافات التى أفضت الى تأخر المسلمين .

ومن الناحية الفكرية ، أدى المهمة التى قام بهـــا فى أوروبا فلاسفة الفكر ، أمثال چان چاك روسو ومونتسكيو وغيرهما ، فعمل على انارة البصائر ، وتوجيه الأفكار الى البحث عن الحقائق، وتحرير العقول من قيود الجمود والتفكير ٠

ومن الوجهـــة السياسية ، استنهض الهمم ، واستثار فى النفوس روح العزة والكرامة ، والتطلع الى الحرية ، وغرس بذور الحركات الوطنية فى مختلف البلاد الشرقية ، ومحاربة الاستعمار٠ وقام بمثل العمل الذى اضطلع به زعماء النهضات السياسية فى الغرب ، كواشنطون ، وجاريبلدى ، ومازينى ، وكوشت وغيرهم٠

فالذى يجمع بين هذه المهام الجليلة ، ويضطلع بها معا ، فى عهد اشتد فيه ظلام الجهـــالة ، وتفرقت الكلمة ، وعز النصير ، وتشعبت الأهواء ، يجب أن يتســـــامى فى قوة النفس والفكر والوجدان ، الى مراتب العبقرية ٠

وهذا الكتاب يؤرخ لهذه الشخصية الفذة ٠ ويسجل مراحل كفاح الرائد الأول لنهضة الشرق ٠

مارس سنة ١٩٦١

عبد الرحمن الرافعى

الفصل الأول

نشأته والعصر الذي ظهر فيه

ولد جمال الدين الأفغانى سنة ١٨٣٨ م (١٢٥٤ هجرية) . فى « سعد آباد » احدى القرى التابعة لخطة (كنر) من أعمال (كابل) عاصمة الأفغان ، ووالده السيد صفتر من سادات (كنر) الحسينية ، ويتصل نسبه بالسيد على الترمذى المحدث المشهور، ويرتقى الى سيدنا الحسين بن على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه، فالمترجم من السلالة النبوية الطاهرة . ويجرى فى عروقه الدم العربى الأصيل . ومن هنا جاء التعريف عنه بالسيد جمال الدين الحسينى الأفغانى .

وقد زعم بعض المتشككين أو المفرضين أن جمال الدين ايرانى لا أفغانى . وهو زعم مختلق يراد منه التشكيك فى أفغانية السيد العظيم . ويدحضه ما اتفق عليه رواة من معاصريه بأنه أفغانى الموطن وتسميته طيلة حياته « جمال الدين الأفغانى » وما قاله رحمه الله عن نسبه . فقد قرر أنه أفغانى صميم . قال مرة « لقد جمعت ما تفرق من الفكر . ولمت شعث التصور . ونظرت الى الشرق وأهله . فاستوقفتنى الأفغان . وهى أول أرض مس جسمى ترابها » . وقال مرة أخرى « انى اضطررت لترك بلادى الأفغان مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض » .

هذا الى ما عرفه أقرب الناس اليه مثل الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده والأمير شكيب أرسلان . والشيخ عبد القادر

المغربى وماسمعوه منه من أنه أفغانى بحت عربى بالسلالة النبوية التى ينتسب اليها .

ولعل هذا الشك الذى أثاره بعض الايرانيين راجع الى التفاخر بالعظماء والتنازع بين الناس على نسبته اليهم .

ولأسرة جمال الدين منزلة عالية فى بلاد الأفغان ، لنسبها الشريف ، ولمقامها الاجتماعى والسياسى ، اذ كانت لها الامارة والسيادة على جزء من البلاد الأفغانية ، تستقل بالحكم فيه ، الى أن نزع الامارة منها « دوست محمد خان » أمير الأفغان وقتئذ ، وأمر بنقل والد السيد جمال الدين وبعض أعمامه الى مدينة (كابل)، وانتقل المترجم بانتقال أبيه اليها ، وهو بعد فى الثامنة من عمره، فعنى أبوه بتربيته وتعليمه ، على ما جرت به عادة الأمراء والعلماء فى بلاده .

وكانت مخايل الذكاء ، وقوة الفطرة ، وتوقد القريحة تبدو عليه منذ صباه ، فتعلم اللغة العربية ، والأفغانية ، والفارسية ، وتلقى علوم الدين ، والتاريخ ، والمنطق ، والفلسفة ، والرياضيات، فاستوفى حظه من هذه العلوم ، على أيدى أساتذة من أهل تلك البلاد ، على الطريقة المألوفة فى الكتب الاسلامية المشهورة ،واستكمل الغاية من دروسه وهو بعد فى الثامنة عشرة من عمره .

ثم سافر الى الهند ، وأقام بها سنة وبضـــعة أشهر يدرس العلوم الحديثة على الطريقة الأوروبية ، فنضج فكره ، واتسعت مداركه ، وكان بطبعه ميالا الى الرحلات ، واستطلاع أحوال الأمم والجماعات ، فعرض له وهو فى الهند أن يؤدى فريضة الحج ، فاغتنم هذه الفرصة وقضى سنة يتنقل فى البلاد ، ويتعرف أحوالها، وعادات أهلها ، حتى وافى مكة المكرمة ، سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧م)، وأدى الفريضة .

بدء حياته العملية

ثم عاد الى بلاد الأفغان ، وانتظم فى خدمة الحكومة على عهد الأمير (دوست محمد خان) المتقدم ذكره ، وكان أول عمل له مرافقته اياه فى حملة حربية جردها لفتح (هراة) ، احدى مدن الأفغان ، وليس يخفى أن النشأة الحربية تعود صاحبها الشجاعة، واقتحام المخاطر، ومن هنا تبدو صفة من الصفات العالية، التى امتاز بها جمال الدين ، وهى الشجاعة ، فان من يخوض غمار القتال فى بدء حياته تألف نفسه الجرأة والاقدام ، وخاصة اذا كان بفطرته شجاعا .

ففى نشأة المترجم الأولى ، وفى الدور الأول من حيـــاته ، تستطيع أن تتعرف أخلاقه ، والعناصر التى تكونت منها شخصيته، فقد نشأ كما رأيت من بيت مجيد ، ازدان بشرف النسب ، واعتز بالامارة ، والسيادة ، والحكم ، زمنا ما ، وتربى فى مهاد العز ، فى كنف أبيه ورعايته فكان للوراثة والنشـــأة الأولى ، أثرهما فيما طبع عليه من عزة النفس ، التى كانت من أخص صـــفاته ، ولازمته طول حياته ، وكان للحرب التى خاضها أثرها أيضا فيما اكتسبه من الأخلاق الحربية .

فالوراثة ، والنشأة ، والتربية ، والمرحلة الأولى فى الحياة العملية ، ترسم لنا جانبا من شخصية جمال الدين الأفغانى .

ســـار المترجم اذن فى جيش « دوست محمد خان » لفتح (هراة) ، ولازمه مدة الحصـــار ، الى أن توفى الأمير ، وفتحت المدينة بعدحصار طويل ، وتقلد الامارة من بعده ولى عهده (شير على خان) سنة ١٨٦٤ م (١٢٨٠ هـ) .

ثم وقع الخلف بين الأمير الجديد واخوته ، اذ أراد أن يكيد لهم ويعتقلهم ، فانضم السيد جمال الدين الى « محمد أعظم » أحد الأخوة الثلاثة ، لما توسمه فيه من الخير ، واستعرت نار الحرب

الداخلية ، فكانت الغلبة لمحمد أعظم ، وانتهت اليه امارة الأفغان، فعظمت منزلة المترجم عنده ، وأحله محل الوزير الأول ، وكاد بحسن تدبيره يستتب الأمر للأمير ، ولكن الحرب الداخلية ، ما لبثت أن تجددت ، اذ كان (شير على) لا يفتأ يسعى لاسترجاع سلطته ، وكان الانجليز يعضدونه بأموالهم ودسائسهم ، فأيدوه وناصروه ، ليجعلوه من أوليائهم وصنائعهم ، وأغدق (شير على) الأموال على الرؤساء الذين كانوا يناصرون الأمير محمد أعظم « فبيعت أمانات ونقضت عهود ، وجددت خيانات » كما يقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وانتهت الحرب بهزيمة محمد أعظم ، وغلبة شير على ، وخلص له الملك .

بقى السيد جمال الدين فى كابل لم يمسه الأمير بسوء ؛ « احتراما لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوى » وهنا أيضا تبدو لك مكانة المترجم ، ومنزلته بين قومه ، وهو بعد فى المرحلة الأولى من حياته العامة ، ويتجلى استعداده للاضطلاع بعظائم المهام ، والتطلع الى جلائل الأعمال ، فهو يناصر أميرا يتوسم فيه الخير ، ويعمل على تثبيته فى الامارة ، ويشيد دولة يكون له فيها مقام الوزير الأول ، ثم لا تلبث أعاصير السياسة والدسائس الانجليزية أن تعصف بالعرش الذى أقامه ، فيدال من أميره ، ويغلب على أمره ، ويلوذ بايران لكى لا يقع فى قبضة عدوه، ثم يموت بها ، أما المترجم فيبقى فى عاصمة الامارة ، ولا يهاب بطش الأمير المنتصر ، ولا يتملقه أو يسعى الى نيل رضاه ، ولا ينقلب على عقبيه ، كما يفعل الكثيرون من طلاب المنافع ، بل بقى عظيما فى محنته ، ثابتا فى هزيمته ، وتلك لعمرى ظواهر عظمة النفس ، ورباطة الجأش ، وقوة الجنان .

وهذه المرحلة كان لها أثرها فى الاتجاه السياسى للسيد جمال الدين ، فقد رأيت ما بذلته السياسة الانجليزية لتفريق الكلمة ، ودس الدسائس فى بلاد الأفغان ، واشعال نار الفتن

الداخلية بها ، واصطناعها الأولياء من بين أمرائها ، ولا مراء فى أن هذه الأحداث قد كشفت للمترجم عن مطـــامع الانجليز ، وأساليبهم فى الدس والتفريق ، وغرست فى فؤاده روح العداء للسياسة البريطانية خاصة ، والمطـــامع الاستعمارية الأوروبية عامة ، وقد لازمه هذا الكره طول حياته ، وكان له مبدأ راسخا يصدر عنه فى أعماله وآرائه وحركاته السياسية ٠

رحيله الى الهند

لم ينفك الأمير (شير على) يدبر المكايد للسيد جمال الدين ، ويحتال للغدر به ، فرأى السيد أن يفارق بلاد الأفغان ، ليجد جوا صالحا للعمل ، فاستأذنه فى الحج ، فأذن له ، فسار الى الهند سنة ١٨٦٩ م (١٢٨٥ هـ) ، وكانت شهرته قد سبقته الى تلك الديار ، لما عرف عنه من العلم والحكمة ، وما ناله من المنزلة العالية بين قومه ، ولم يكن يخفى على الحكومة الانجليزية عداؤه لسياستها ، وما يحدثه مجيئه الى الهند من اثارة روح الهياج فى النفوس ، وخاصة لأن الهند كانت لاتزال تضطرم بالفتن على الرغم من اخماد ثورة سنة ١٨٥٧ ، فلما وصل الى التخوم الهندية تلقته الحكومة بالحفاوة والاكرام ، ولكنها لم تسمح له بطول الاقامة فى بلادها ، وجاء أهل العلم والفضل يهرعون اليه ، يقتبسون من نور علمه وحكمته ، ويستمعون الى أحاديثه وما فيها من غـــذاء للعقل والروح ، والحث على الأنفة وعزة النفس ، فنقمت الحكومة منه اتصاله بهم ، ولم تأذن له بالاجتماع بالعلماء وغيرهم من مريديه وقصاده ، الا على عين من رجالها ، فلم يقم هناك طويلا ، ثم أنزلته الحكومة احدى سفنها فأقلته الى السويس ٠

مجيئه مصر لأول مرة

جاء مصر لأول مرة أوائل سنة ١٨٧٠ م(أواخر سنة ١٢٨٦ هـ)، ولم يكن يقصد طول الاقامة بها ، لأنه انما جاء ووجهته الحجاز ، فما أن سمع الناس بمقدمه حتى اتجهت اليه أنظار النابهين من

أهل العلم ، وتردد هو على الأزهر ، واتصل به كثير من الطلبة ، فآنسوا فيه روحا تفيض معرفة وحكمة ، فأقبلوا عليه يتلقون بعض العلوم الرياضية ، والفلسفية ، والكلامية ، وقرأ لهم شرح (الاظهار) (١) فى البيت الذى نزل به بخان الخليلى ، وأقام بمصر أربعين يوما ، ثم تحول عزمه عن الحجاز ، وسافر الى الاستانة (استنبول) .

قال الشيخ محمد عبده عن تتلمذه لجمال الدين : « وقد صاحبته من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية وأدعو الناس الى التلقى عنه كذلك . وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الأقاويل ويزعمون أن تلقى تلك العلوم قد يفضى الى زعزعة العقائد الصميمة وقد يهوى بالنفس فى ضلالات تحرمها خيرى الدنيا والآخرة ، فكنت اذا رجعت الى بلدى عرضت ذلك على الشيخ درويش (٢) فكان يقول لى : ان الله هو العليم الحكيم ولا علم يفوق علمه وحكمته . وان أعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه . وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة . فلا شىء من العلم بممقوت عند الله ولا شىء من الجهل بمحمود لديه ، الا ما يسميه بعض الناس علما وليس فى الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما اذا قصد من تحصيلهما الأضرار بالناس » (٣) .

العصر الذى ظهر فيه

أخذ النضج السياسى لجمال الدين الأفغانى يتكون حوالى منتصف القرن التاسع عشر . وكان لحالة الشرق وقتئذ أثرها

---

(١) متن مختصر فى علم النحو لمؤلفه البركوى .

(٢) خال والد الأستاذ الامام وكان يدارسه القرآن والعلم .

(٣) تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده للسيد محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٥ .

في هذا التكوين • فالاستعمار الأوروبى فى عنفوانه وجبروته • والأمم الشرقية اما خاضعة لهذا الاستعمار أو كانت هدفه ومقصده• ففرنسا تحتل الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ وترنو ببصرها الى البلدان العربية المجاورة •

وفى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تغزو افريقية • كانت بريطانيا تعمل على أن تطأ أقدامها جنوب جزيرة العرب فاحتلت (عدن) سنة ١٨٣٩ • ثم أخذت تبسط نفوذها وشرورها على مر السنين فى المناطق القريبة منها والبعيدة عنها بحيث لم ينتصف القرن التاسع عشر حتى مدت شراكها الى الكثير من الأصـــقاع الجنوبية من شبه الجزيرة العربية •

وكانت تحتل الهند وتضطهد الأهلين فيها . وقد ثاروا عليها سنة ١٨٥٧ للتحرر من استعمارها • ولكنها أخمـــدت ثورتهم بالحديد والنار سنة ١٨٥٩ •

وكانت تدبر المكايد لبلاد الأفغان ــ موطن جمال الدين ــ وتعمل على غزوها وضمها الى مستعمراتها وباءت بالفشل المرة تلو الأخرى• ولكنها كانت ماضية فى تحقيق أطماعها واصطناع الأعوان والعملاء فيها •

وهولندة تحتل معظم جزائر انهند الشرقية (أندونيسيا) وتبسط على أهلها سلطانها الغاشم •

ومصر تكتنفها المطامع الاستعمارية وتلاحقها • فمنذ أن أخفقت بريطانيا فى حملة فريزر عليها سنة ١٨٠٧ فى مطلع القرن التاسع عشر وفشلت وقتئذ فى احتلالها • أخذت تترقب الفرص لتعاود تحقيق أطماعها الاستعمارية فيها • وتنافست هى وفرنسا فى بسط نفوذها السياسى والاقتصادى عليها وانتزعت فرنسا من مصر سنة ١٨٥٤ امتياز حفر قناة السويس • فكان ذلك غزوا اقتصاديا لها • واشـــتد التنافس بينها وبين بريطانيـــا على التدخل فى شئونها •

فالعصر الذى ظهر فيه جمال الدين كان عصر طغيان الاستعمار الأوروبى فى بلاد الشرق عامة . وكان من شأنه أن يؤجج فى النفوس الحساسة مشاعر بغضه وكراهيته والسخط على المستعمرين والدعوة الى محاربتهم ومقاومتهم .

وكانت الحالة الداخلية لبلاد الشرق بالغة منتهى السوء . فملوكها وأمراؤها يحكمونها حكمـــا استبداديا . ولا يعترفون لشعوبهم بحقوقهم السياسية والمدنية . ولا يريدون أن يتخلوا عن سلطانهم المطلق القائم على الأهواء والشهوات . والنظم الداخلية للحكم قد استشرى فيها الفساد . والجهالة متفشية بين المواطنين . والأمية غالبة عليهم . والعقائد الدينية قد شـــابتها الأباطيل والخرافات . والجمود مستحوذ على العلماء والخواص . والأفكار مغلقة لا تنفذ اليها دعوة الحق أو التحرر من قيود التقاليد والأوهام.

فالاستعمار الخارجى . والاستبداد الداخلى . والتأخر والجمود الفكرى . والغفلة الشاملة ، تلك هى العناصر الجوهرية لحـــالة الشرق فى منتصف القرن التاسع عشر .

هـــذه هى حالة الشرق عامة فى العصر الذى ظهـــر فيه جمال الدين الأفغانى وكان لها ولا ريب دخل أيما دخل فى تكوين شخصيته واتجاهاته ؛ والتمهيد لكفاحه .

ولكن من الحق أن نقول ان هذه الحالة لم تحرك فى نفوس معاصريه ما حركت فى نفسه . فلماذا كانت العامل المؤثر فى تكوين شخصيته ؟ لقد شعر بهذه الحالة كثير من معاصريه ولكنها لم تصل فى نفوسهم الى درجة الثورة على الأوضاع القائمة مثل ما وصلت فى نفس جمال الدين . فما هو السر فى هذا الفارق ؟ ان الجواب على هذا السؤال يبدو واضحا جليا اذا علمنا أن الأمم يظهر فيها حينا بعد حين زعماء يحملون لواء التحرير ، أو الاصلاح والتجديد ، ويمتازون بناحية من نواحى العبقرية تؤهلهم للاضطلاع

بأعباء هذه الرسالة • ولاشك أن جمال الدين الأفغانى قد امتاز على معاصريه بعبقريته ومواهبه ، فكان واحدا من هؤلاء العباقرة الذين حملوا رسالة النهضة والحرية وغرسوها فى نفوس معاصريهم •

فالعصر الذى ظهر فيه جمال الدين الأفغانى ، وظروفه وملابساته ، وعبقريته ومواهبه ، كان لها كلها الأثر المشترك فى تكوين شخصيته والتمهيد لكفاحه ودعوته •

سفره الى الاستانة وأثره فيها

ثم رحيله عنها

وصل السيد جمال الدين الى الاستانة ، فلقى من حكومة السلطان عبد العزيز حفاوة واكراما ، اذ عرف له الصدر الأعظم « عالى باشا » مكانته ، وكان هذا الصدر من ساسة الترك الأفذاذ ، العارفين بأقدار الرجال ، فأقبل على السيد يحفه بالاحترام والرعاية ، ونزل من الأمراء والوزراء والعلماء منزلة عالية ، وتناقلوا الثناء عليه ، ورغبت الحكومة أن تستفيد من علمه وفضله ، فلم تمض ستة أشهر حتى جعلته عضوا فى (مجلس المعارف) ، فاضطلع بواجبه ، وأشار باصلاح مناهج التعليم •

ولكن آراءه لم تلق تأييدا من زملائه ، واستهدف لسخط شيخ الإسلام حسن فهمى أفندى ، اذ رأى فى تلك الآراء ما يمس شيئا من رزقه ، فأضمر له السوء ، وأرصد له العنت ، حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ هـ ، (ديسمبر سنة ١٨٧٠ م) ، فرغب اليه مدير دار الفنون أن يلقى فيها خطابا للحث على الصناعات ، فاعتذر بادىء بدء بضعفه فى اللغة التركية ، فألح عليه ، فأنشأ خطابا طويلا كتبه قبل القائه ، وعرضه على نخبة من أصحاب المناصب العالية ، فأقروه واستحسنوه •

وألقى السيد خطابه بدار الفنون ، فى جمع حاشد من ذوى العلم والمكانة ، فنال استحسانهم ، ولكن شيخ الاسلام اتخذ من بعض آرائه مغمزا للنيل منه بغير حق ، ورميه بالزيغ فى عقيدته ، واغتنمها فرصة للايقاع به ، وألب عليه الوعاظ فى المساجد ، وأوعز اليهم أن يذكروا كلامه محفوفا بالتفنيد والتنديد ، فغضب السيد لمكيدة شيخ الاسلام ، وطلب محاكمته ، ولكن الحكومة انحازت الى شيخها ، وأصدرت أمرها الى المترجم بالرحيل عن الاستانة بضعة أشهر ، حتى تسكن الخواطر ، ويهدأ الاضطراب، ثم يعود اليها ان شاء ، ففارقها مهضوما حقه ، ورغب اليه بعض مريديه أن يتحول الى الديار المصرية ، فعمل برأيهم وقصد اليها .

على أن جهاده فى تركيا قد ظهر أثره على مر السنين فليس يخفى أن (مدحت باشا) الملقب بأبى الأحرار فى تركيا قد وضع مشروع الدستور وأعلن القانون الأساسى (الدستور) سنة ١٨٧٦. حقا ان البرلمان العثمانى الذى انتخب على أساسه لم يكد يجتمع حتى ألغى اجتماعه فى أوائل سنة ١٨٧٨ بأمر السلطان عبد الحميد . ونفى واضع الدستور مدحت باشا وعاد الحكم المطلق فى تركيا . على أن البذرة التى وضعها جمال الدين سنة ١٨٧٠ قد أثمرت على مدى السنين حتى حدث الانقلاب العثمانى وعاد الدستور سنة ١٩٠٨ .

الفصل الثاني

عمله في مصر

جاء السيد جمال الدين الى مصر للمرة الثانية فى أوائل المحرم سنة ١٢٨٨ هـ (مارس سنة ١٨٧١ م) ، لا على نية الاقامة بها، بل على قصد مشاهدة منـــاظرها ، واستطلاع أحوالها ، ولكن (رياض باشا) وزير اسماعيل فى ذلك الحين رغب اليه البقاء فى مصر ، وأجرت عليه الحكومة ـ راتبا مقداره ألف قرش كل شهر ، نزلا أكرمته به ، لا فى مقابل عمل ، واهتدى الى المترجم كثير من طلبة العلم ، يستورون زنده ، ويقتسبون الحكمة من بحر علمه ، فقرأ لهم الكتب العالية فى فنون الكلام ، والحكمة النظرية، من طبيعية وعقلية ، وعلوم الفلك ، والتصوف ، وأصول الفقه ، بأسلوب طريف ، وطريقة مبتكرة ، وكانت مدرســـته بيته ، ولم يذهب يوما الى الأزهر مدرسا ، وانما ذهب اليه زائرا ، وأغلب ما يزوره يوم الجمعة ، وكان أسلوبه فى التدريس مخاطبة العقل، وفتح أذهان تلاميذه ومريديه الى البحث والتفكير ، وبث روح الحكمة والفلسفة فى نفوســـهم ، وتوجيه أذهانهم الى الأدب ، والانشاء ، والخطابة ، وكتابة المقالات الأدبية ، والاجتمـاعية ، والسياسية ، فظهرت على يده نهضة فى العلوم والأفكار أنتجت أطيب الثمرات .

وهنا موضع للتساؤل ، عما حمل الخديو اســـماعيل الى استمالة الحكيم الأفغانى للاقامة فى مصر ، واكرام مثواه ، فقد

يبدو هذا العمل غريبا ، لأن لجمال الدين ماضيا سياسيا ، ومجموعة أخلاق ومبادىء ، لا ترغب فيه الملوك المستبدين ، ولم يكن السيد من أهل الملق والدهان فينال عطفهم ورعايتهم ، ويجرون عليه الأرزاق بلا مقابل ، ولكن الأمر لا يعسر فهمه اذا عرفنا أن فى اسماعيل جانبا ممدوحا ، وهو حبه للعلم ، ورغبته فى نشره ورعايته ، وكانت شخصية جمال الدين العلمية ، وشهرته فى الفلسفة ، أقوى ظهورا ، وخاصة فى ذلك الحين ، من شخصيته السياسية ، فلا غرو أن يكرم فيه اسماعيل العالم المحقق ، الذى يفيض على مصر من بحر علمه وفضله ، فترغيبه اياه فى البقاء بمصر يشبه أن يكون فتحا علميا ، كتأسيس معهد من معاهد العلم العالية التى أنشئت على يده .

أما آراء الحكيم السياسية ، وكراهيته للاستبداد ، ونزعته الحرة ، فلم يكن مثل اسماعيل يخشاها أو يحسب لها حسابا كبيرا ، لأنه فى ذلك الحين (سنة ١٨٧١) كان قد بلغ أوج سلطته، فكان يحكم البلاد حكما مطلقا ، يأمر وينهى ، ويتصرف فى أقدار البلاد ومصاير أهلها ، دون رقيب أو حسيب ، وكان مجلس شورى النواب آلة مطواعة فى يده ، والصحافة فى بدء عهدها تكيل له عبارات المديح ، وتصوغ له عقود الثناء ، ولم يكن سلطانه قد استهدف بعد للتدخل الأجنبى ، لأن هذا التدخل لم يقع الا فى سنة ١٨٧٥ ، فليس ثمة ما يخشى منه اسماعيل ، على سلطته المطلقة ، من الناحية الداخلية أو الخارجية ، حين رغب الى حكيم الشرق الاقامة والتدريس فى مصر ، وقد بدأت النهضة التى ظهرت على يد السيد ، علمية ، وأدبية ، ولم تتطور الى الناحية السياسية الا حوالى سنة ١٨٧٦ .

وثمة اعتبار آخر ، لا يفوتنا الالماع اليه ، ذلك أن جمال الدين قد بارح الاستانة ، اذ لم يجد فيها جوا صالحا للنهضة العلمية، والفكرية ، وقصد الى مصر وقد سبقته اليها أنباؤه وما لقيه فى « دار الخلافة » من العنت والاضطهاد ، وكان اسماعيل ينافس

حكومة الاستانة فى المكانة والنفوذ السياسى ، وينظر اليها بعين الزراية ، ولايرضى لمصر أن تكون تابعة لتركيا ، ولا أن يكون هو تابعا للسلطان العثمانى ، وليس خافيا ما كان يبذله من المساعى للانفصال عن تركيا فى ذلك الحين ، وظهوره بمظهر العـــاهل المستقل ، فى معرض باريس العام سنة ١٨٦٧ ، وفى اغفاله دعوة السلطان الى حضور حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، وعزمه على اعلان استقلال مصر التام فى تلك الحفلات ، لولا العقبات السياسية التى اعترضته ، ولا يعزب عن الذهن ما كان بين الخديو والسلطان من مظاهر الفتور والجفاء التى كادت تقطع الرو بينهما ، وأخصها فرمان نوفمبر سنة ١٨٦٩ الذى أصدره السلطان منتقصا سلطة الخديو .

ففى هذا الجو هبط جمال الدين مصر مبعدا من الاستانة ، فلم يفت اسماعيل أن يغتنم الفرصة ليحمى العلم فى شخص الفيلسوف الأفغانى ، ولا يخفى ما لهذا العمل من حسن الأثر وجميل الأحدوثة، اذ يرى الناس فيه أن مصر تؤوى العلماء والحكماء ، حين تضيق عنهم « دار الخلافة » . وأن عاهل مصر ، أحق من السلطان العثمانى بالثناء والتقدير . لأنه يفسح للعلم رحابه ، ويوطىء له فى وادى النيل أكنافه .

وقد يكون لرياض باشا يد فى اكرام وفادة المترجم ، ولكن اذا علمنا أن وزراء اسماعيل لم يكونوا يصدرون الا عن رأيه وأمره ، ادركنا أن رياض باشا لم يكن الرجل الذى ينفرد بهذا الصنيع ، نحو المترجم ، ومهما يكن من واقع الأمر فان لرياض فضل المشاركة فى عمل كان له الأثر البـــالغ فى نهضة مصر العلمية والفكرية والسياسية .

أثره العلمى والأدبى فى مصر

أقام جمال الدين فى مصر ، وأخذ يبث تعاليمه فى نفوس تلاميذه ، فظهرت على يده بيئة استضاءت بأنوار العلم والعرفان،

وارتوت من ينابيع الأدب والحكمة ، وتحررت عقولها من قيود الجمود والأوهام ، وبفضله خطا فن الكتابة والخطـابة فى مصر خطوات واسعة ، ولم تقتصر حلقات دروسه ومجالسه على طلبة العلم ، بل كان يؤمها كثير من العلماء والموظفين والأعيان وغيرهم ، وهو فى كل أحاديثه « لا يسأم ، كما يقول عنه تلميذه الأكبر الأستاذ الامام الشيخ محمده عبده من الكلام فيما ينير العقل ، أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس الى معالى الأمور أو يستلفت الفكر الى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصـــــلحة البـلاد وسكانها ، وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف الى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينـــــالونه الى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر وتنبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد خصوصا فى القاهرة » .

وقال الأستاذ الامام فى موطن آخر يصف تطور الكتابة على يد المترجم « كان أرباب القلم فى الديار المصرية القادرون على الاجادة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل ، وما كنا نعرف منهم الا عبد الله باشا فكرى ، وخيرى باشا ، ومحمد باشا سيد أحمد، على ضعف فيه ، ومصطفى باشا وهبى ، على اختصاص فيه ، ومن عدا هؤلاء فاما ساجعون في المراسلات الخاصة ، واما مصنفون فى بعض الفنون العربية أو الفقهية ، وما شاكلها ، ومن عشر سنوات ترى كتبة فى القطر المصرى ، لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم، وأغلبهم أحداث فى السن ، شيوخ فى الصناعة ، ومامنهم الا من أخذ عنه أو عن أحد تلاميذه ، أو قلد المتصلين به » . انتهى كلام الامام .

فروح جمال الدين كان لها الأثر البالغ فى نهضة العلوم والآداب فى مصر ، ولا يفوتنا القول بأن البيئة التى نهض بها كانت مستعدة للرقى ، صالحة لغرس بذور هذه النهضـــــة ، وظهور ثمارها ، أو بعبارة أخرى ، ان مصر بمافيها من الأزهر ، والمعاهد العلمية الحديثة ، والتقدم العلمى ، كانت على استعداد لتقبل دعوة الحكيم

الأفغانى ، ولولا هذا الاستعداد ، لقضى على هذه الدعوة فى مهدها، ولأخفق هو فى مصر كما أخفق فى الاستانة ، حيث وجد أبواب العمل موصدة أمامه ، وهذا يبين لنا جانبا من مكانة مصر ، وسبقها الأقطار الشرقية فى التقدم العلمى والفكرى ، والسياسى ، ويزيد هذه الحقيقة وضوحا ، أنك اذا استعرضت حياة جمـال الدين العامة وما تركه من الأثر فى مختلف الأقطار الشرقية التى بث فيها دعوته ، وجدت أثره فى مصر أقوى وأعظم منه فى أى بلد من البلدان الأخرى ، وفى هذا ما يدلك على مبلغ استعداد مصر للنهضة والتقدم ، اذا تهيأت لها أسباب العمل ، ووجدت القـادة الحكماء .

أثره الأخلاقى والسياسى

جاء المترجم مصر يحمل بين جنبيه عبقرية وروحا كبيرة ، ونفسا قوية ، تزينها صفات وأخلاق عالية ، أنبتتهـا الوراثة والتربية الأولى ، وهذبتها الحكمة والمعرفة ومحصتها الحياة الحربية التى خاض غمارها فى بلاد الأفغان ، والتجارب التى مارسها ، والشدائد التى عاناها ، جاء وفيه من الشمم والاباء ما صـدفه عن أن يطأطىء الرأس ويقيم على الضيم ، وفيه من الثبات ومضاء العزيمة ما جعله يتغلب على العقبات التى اعترضته فى ادوار حياته ، فقد رأيت كيف بقى على ولائه للأمير محمد أعظم ، رغم ما أصابه من الهزيمة ولم يخضع لخصمه (شير على) ، ورحل الى الهند ، فلم تطق السياسة الاستعمارية بقاءه فيها وأقصته عنها ، وذهب الى الاستانة ، فلم يعرف الملق والدهان ، وجهر بالحق ، واستهدف لعداوة شيخ الاسلام ، فلم يتراجع ولم ينكص على عقبيه ، وانتهى الخلاف باقصائه عن الاستانة .

فهذه الأخلاق التى جاء بها جمال الدين الى مصر كانت بلا مراء أقوى مما عرف عن المجتمع المصرى ، فى ذلك العهد ، من خفض

الجناح ، والصبر على الضيم ، وليس يخفى ما للشخصيات الكبيرة من سلطان أدبى على النفوس ، وما تؤثر فيها من طريق القدوة ، فالسيد جمال الدين بما اتصف به من الأخلاق العالية ، أخذ يبث فى النفوس روح العزة والشهامة ، ويحارب روح الذلة والاستكانة، فكان بنفسيته ودروسه وأحاديثه ، ومناهجه فى الحياة ، مدرسة أخلاقية ، رفعت من مستوى النفوس فى مصر ، وكانت على الزمن من العوامل الفعالة للتحول الذى بدا على الأمة ، وانتقالها من حالة الخضوع والاستكانة الى التطلع للحرية والتبرم بنظام الحكم فى عهد اسماعيل ومساوئه · والسخط على تدخل الدول الأجنبية فى شئون البلاد ·

الحالة السياسية والمالية فى مصر

كما شهدها جمال الدين الأفغانى

قضى جمال الدين الأفغانى فى مصر ثمانى سنوات وبضعة أشهر من عام ١٨٧١ الى أن نفى منها سنة ١٨٧٩ وقد شهدت هذه الفترة أحداثا كبيرة فى تاريخ مصر وكانت مرحلة هامة من مراحل كفاح جمال الدين · ويقع معظمها فى عهد الخديو اسماعيل · وقد نفى جمال الدين فى أوائل عهد توفيق ·

كان اسماعيل يحكم البلاد حكما مطلقا ، يتولاه بنفسه · وظلت كل صغيرة وكبيرة من شئون الحكومة رهن اشارته بحيث كان يحق له أن يحاكى لويس الرابع عشر ملك فرنسا فى قوله « انما الدولة أنا » الى أن حدث التدخل الأجنبى بواسطة (صندوق الدين) سنة ١٨٧٦ ثم الرقابة الثنائية البريطانية والفرنسية · ثم الوزارة المختلطة . ففلت سلطته بما كسبه الأجانب من التدخل فى شئون الحكومة المالية والسياسية . ولم يكن الوزراء (أو النظار كما كان اسمهم) سوى موظفين لدى الخـــديو · يعينهم لادارة النظارات المعروفة فى ذلك العصر · وكانت تسمى (دواوين) ·

ولم يكن للنظار من السلطة الا ما يتلقونه عن الخديو • وتضاءلت سلطتهم حتى أمام (المفتشين العموميين) وهما مفتش الوجه البحرى • ومفتش الوجه القبلى اللذين استحوذا على السلطة الادارية والمالية فى الحكومة بأمر الخديو • وليس معروفا على وجه التحقيق ما هى الحكمة فى ايجاد هذا النظام الذى يجعل سلطة المفتشين مساوية لسلطة النظار • وبجعلهم أعظم شأنا من هؤلاء • ويظهر أن السبب فى ذلك هو رغبة اسماعيل فى أن تتعارض السلطتان حتى تكون كل منهما رقيبة على الأخرى فيطمئن على سلوك كلتيهما • وهى قاعدة مألوفة فى حكومات الاستبداد •

كان الحكم اذن حكما استبداديا لا مجال فيه للحرية • حقا ان اسماعيل أنشأ سنة ١٨٦٦ مجلسا سمى (مجلس شورى النواب) ولكنه مجلس استشارى لا يملك سلطة قطعية فى أى أمر من الأمور • وقراراته كانت أشبه برغبات ترفع الى الخديو وله فيها القول الفصل • فلم يكن ممكنا أن مثل هذا المجلس يؤثر تأثيرا عمليا فى سياسة الحكومة ولا أن يضع حدا للحكم المطلق • وتدل الظروف والملابسات على أن اسماعيل حين أنشأه لم يعتزم التخلى عن سلطته المطلقة بل أراد أن يجعل منه هيئة استشارية تزيد من رونق الحكم وبهائه (١) •

هذا من الوجهة السياسية • أما من الوجهة المالية فقد كانت أسوأ منها حالا • لقد كان أكبر آفات اسماعيل الاسراف والاقتراض من البيوت المالية والمرابين الأجانب من غير حساب أو نظر فى العواقب • حتى كبل البلاد حكومة وشعبا بالقروض الفاحشة •

وفى الجدول الآتى بيان الديون التى اقترضها اسماعيل أو اقترضتها الحكومة فى عهده :

---

(١) عصر اسماعيل جـ ٢ ص ٩٦ •

قروض مصر فى عهد اسماعيل

تاريخ القرض	قيمة القرض	
سنة ١٨٦٤	٥ر٧٠٤ر٢٠٠	جنيه انجليزى
سنة ١٨٦٥	٣ر٣٨٧ر٣٠٠	جنيه انجليزى
سنة ١٨٦٦	٣ر٠٠٠ر٠٠٠	جنيه انجليزى
سنة ١٨٦٧	٢ر٠٨٠ر٠٠٠	جنيه انجليزى
سنة ١٨٦٨	١١ر٨٩٠ر٠٠٠	جنيه انجليزى
سنة ١٨٧٠	٧ر١٤٢ر٨٦٠	جنيه انجليزى
الديون السائرة	٢٥ر٠٠٠ر٠٠٠	جنيه انجليزى
سنة ١٨٧٨	٣٢ر٠٠٠ر٠٠٠	جنيه انجليزى
سنة ١٨٧٨	٨ر٥٠٠ر٠٠٠	جنيه انجليزى

ويضاف الى ذلك المبالغ الآتية التى تلحق بالقروض وترد فى سياقها وهى :

المتحصل من المقابلة	١٣ر٥٠٠ر٠٠٠	جنية انجليزى
دين الرزنامة	٣ر٣٣٧ر٠٠٠	جنيه انجليزى
ثمن أسهم مصر فى قناة السويس	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	جنيه انجليزى
ما أخذ من الأوقاف الخيرية وبيت المال	٥٣٧ر٠٠٠	جنيه انجليزى
مطلوبات من الحكومة لم تدخل فى تسوية الدين العام سنة ١٨٧٦	٦ر٢٧٦ر٠٠٠	جنيه انجليزى
المجموع	١٢٦ر٣٥٤ر٣٦٠	جنيه انجليزى

نظرة عامة فى هذه القروض

كان على البلاد من الدين العام عند وفاة سعيد باشا نحو أحد عشر مليون جنيه . وهو فى الواقع مبلغ جسيم اذا قورن بميزانية مصر فى ذلك العصر .

وقد ندد اسماعيل حينما تبوأ عرش مصر سنة ١٨٦٣ باسراف سلفه سعيد ، واعتزم أن يسير طبقا لقواعد الاقتصاد والتدبير[١]، ونوه بذلك فى خطبة ألقاها بحضور وكلاء الدول ، وضح فيها برنامجه الذى اعتزم اتباعه فى الحكم ، فهى بمثابة (خطبة العرش) تفيض بالآمال الكبار والأمانى الحسان .

قال فيها « ان أساس الادارة هو النظام والاقتصاد فى المالية، وسأبذل كل جهدى فى اتباع قواعد النظام والاقتصاد ، وقد عزمت أن أرتب لنفسى مخصصات محدودة لا أتجاوزها أبدا ، وسأعمل على ابطال السخرة التى اعتمدت عليها الحكومة فى أعمالها وآمل أن تؤدى حرية التجارة الى نشر الرفاهية والرخاء بين جميع طبقات الشعب وسأعنى كل العناية بتوطيد دعائم العدالة » .

تلك عهود الخديو اسماعيل فى خطبة العرش وأولها اتباع قواعد النظام والاقتصاد .

ولكن لم تكد تمضى عدة أشهر على هذه الدعوة حتى أخذ ينقضها ، ففتح باب القروض متلاحقة بعضها اثر بعض ، واتخذها عادة تكاد تكون سنوية .

ولم تكن حالة البلاد المالية تستدعى الاقتراض ، لأن مصر تعد من أغنى بلاد العالم ، وكانت تستطيع اذا هى وجدت ادارة حكيمة أن تسلك سبيل التقدم والعمران دون أن تحتاج الى القروض ، وعلاوة على ذلك فان ما نشأ عن الحرب الأمريكية الأهلية من ارتفاع أسعار القطن فى أوائل حكم اسماعيل ، قد جعل البلاد فى حالة يسر ورخاء .

واشتملت ميزانية سنة ١٨٦٤ على زيادة فى الدخل على الخرج ، فلم يكن ثمة حاجة الى قرض جديد كما يقول مؤلف (تاريخ مصر المالى) الذى عاش فى ذلك العصر وألف فيه كتابه القيم [١] .

---

(١) تاريخ مصر المالى من عهد سعيد الى سنة ١٨٧٦ لبابونو "Paronot" ص ١٨ ، ١٩ .

ولكن اسماعيل اقترض أول قروضه سنة ١٨٦٤ ، وتذرع لتسويغه بحاجة الحكومة الى المال لمقاومة الطاعون البقرى الذى انتاب البلاد فى ذلك العهد ، ولسداد أقساط ديون سعيد باشا ، ويقول مؤلف (تاريخ مصر المالى) ان مقاومة الطاعون البقرى كانت حجة واهية ، لأن الفلاحين والملاك هم الذين احتملوا وحدهم الخسائر الناشئة عن هذا الطاعون ، ولم يرد بميزانية سنة ١٨٦٤ مما أنفقته الحكومة فى هذا الصدد سوى ١٢٥٫٠٠٠ جنيه ، ولذلك أبدى دهشته من أن الحكومة تلجأ الى الاقتراض على ما فى ميزانية سنة ١٨٦٤ من زيادة الدخل على الخرج .

وقال ان السبب الحقيقى لقرض سنة ١٨٦٤ ان اسماعيل لم يحقق وعود الاقتصاد التى قطعها على نفسه ، بل سار سيرة بذخ وهوى واسراف ، واستكثر من شراء الأطيان والأملاك لنفسه ، والانفاق عليها ، فهذه الأسباب هى التى جعلته يعقد القرض الأول ، وما كان سداد ديون سعيد ، ولا الانفاق على مقاومة الطاعون البقرى ، الا ذريعة شكلية لذر الرماد فى العيون .

هذا ما يقوله مؤلف تاريخ مصر المالى ، وهو كاتب مشهود له بتحرى الحقائق والاعتدال فى الرأى ، وليس فى كلامه مبالغة . لأن المعروف عن اسماعيل أنه كان بطبعه ميالا الى الاستكثار من المال والعقار ، وظهرت عليه هذه الميول ، منذ ولايته الحكم ، فقد كان نظار أملاكه ومفتشوها يفتنون فى حمل الفلاحين على بيع أطيانهم أو التنازل عنها للخديو ، حتى صار مالكا لخمس أطيان القطر المصرى .

كتبت مدام (أولمب ادوار) Mme Olympe Edward فى كتابها عن مصر تقول عن الخديو اسماعيل : **انه لم يكن يهتم الا بجمع الملايين** ، وكان يقتنى الأطيان فى كل ناحية قدر ما يستطاع ، ويلجأ الى السخرة لزرعها واستصلاحها ، ويعقد القرض تلو القرض لآجال

طويلة ، تاركا لمن يخلفه فى الحكم أن يسدد ديونه ، حتى كأنه يقصد أن يعقد مهمة الحكم لمن يأتى من بعده[1] .

كتب هذا الكلام فى ديسمبر سنة ١٨٦٤ ، ولم يكن مضى عامان على اعتلاء اسماعيل العرش ، فهذا الوصف يعطيك صورة عن ميوله الأولى ، فهو قد بدأ يستدين فى الوقت الذى لم تكن البلاد فى حاجة ما الى الاستدانة ، واستدان ليقتنى الأطيان والعقار .

لم ينفق اسماعيل شيئا يذكر من قرض سنة ١٨٦٤ على رافق البلاد العامة بل أنفق معظمه على توسيع دائرة أطيانه وأملاكه ، واشترى فى ذلك الحين قصر (ميركون) على ضفاف البوسفور ، ليتخذه مقرا له عندما ينزل الاستانة ، ولم يكن لولاة مصر قصور خاصة بهذه المدينة ينزلون بها من قبل ، ولكن اسماعيل رأى من استكمال مظاهر البذخ أن يكون له قصر فخم لا يقل بهاء ورواء عن قصور السلاطين ، فابتاع ذلك القصر وأنفق المبالغ الطائلة فى توسيعه وزخرفته .

وفى ذلك العهد بدأ ينشىء القصور الفخمة فى مصر ، فشرع فى اقامة سراى الجيزة المشهورة ، وتعددت المبانى حولها ، ومدت الطرق الجميلة بين الجيزة والجزيرة ، وأنفقت الأموال جزافا فى سبيل انشائها .

فهذه النفقات الباهظة جعلت اسماعيل يفكر فى قرض آخر سنة ١٨٦٥ ولما تمض ثمانية أشهر على القرض الأول .

وقد جد سبب آخر دعا اسماعيل الى عقد القرض الثانى ، وهو الأزمة المالية التى عقبت هبوط أسعار القطن ، ذلك أن انتهاء الحرب الأمريكية الأهلية فى أوائل سنة ١٨٦٥ فتح الأسواق أمام القطن الأمريكى ، فتراجعت أسعار القطن المصرى الى مستواها القديم ،

---

(١) كشف الستار عن أسرار مصر لمدام أولمب ادوار Mme Olympe Edward ص ٤٩ .

وقد حل الضيق بالأهالى من الفلاحين والملاك ، لأنهم اعتادوا أثناء ارتفاع أسعار القطن أن ينفقوا عن سعة ويستدينوا المال بفوائد فاحشة من المرابين على أمل سداده من ثمن القطن فى الموسم المقبل (كما حدث سنة ١٩١٩ ، والتاريخ يعيد نفسه) ، فلما هبطت أسعار القطن وقعوا فى أزمة شديدة عرفت بأزمة سنة ١٨٦٥ ، ولم يدروا كيف يوفون ديونهم ، فاعتزم اسماعيل أن تتدخل الحكومة فى هذه الأزمة ، فحصرت ديون الأهلين وسددتها عنهم للدائنين والمرابين على أن ترجع بها على المدينين مقسطة على سبع سنوات بفائدة ٧ ٪ ، وخصص لهذه العملية ٠٠٠ر٤٠٠ر١ جنيه .

ولاشك فى أن اسماعيل لو اتبع التدبير والاقتصاد ، لما كانت الحكومة فى حاجة الى هذا القرض الجديد ، ولا الذى سبقه ، فضلا عن الديون السائرة التى لم يكن يعرف مقدارها ، وهى الديون التى كان الخديو يقترضها بسندات على الخزانة .

اقترض اسماعيل قرض سنة ١٨٦٥ من بنك الأنجلو ، وقدره ٣٠٠ر٣٨٧ر٣ جنيه ولم يقبض منه سوى ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ جنيه ، ورهن فى مقابلة ٠٠٠ر٣٦٥ فدان من أملاكه ، ويسمى هذا الدين قرض (الدائرة السنية الأول) .

واستدان قرضا جديدا من بنك أوبنهايم فى ٥ ينـاير سنة ١٨٦٦ ، وقدره ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ جنيه ، ورهن فى مقابله ايرادات السكك الحديدية .

وقد جرت المفاوضات بشأن هذا القرض أثناء مفاوضات القرض السابق ، وهذا من أغرب ما سمع فى معرض التبذير وقصر النظر ، وكان قرض أوبنهايم هو الأسبق ، لكن المفاوضات بشأنه طالت ، فلم يطق اسماعيل صبرا ، واستدان من بنك الأنجلو القرض السابق ، ثم تمت المفاوضات الخاصة بقرض أوبنهايم ، فأتم صفقته أيضا .

واستدان اسماعيل فى تلك السنة أيضا دينين آخرين من الديون السائرة ، ولم يكن فى حاجة الى هذه القروض ، ولكنـه

أنفقها على بناء قصوره ، ودفع منها ثمن أملاك أخيه مصطفى فاضل وعمه محمد عبد الحليم فقد كان ميالا الى الاستكثار من الأملاك بكل الوسائل كما أسلفنا ، وامتدت أطمـاعه الى تجريد الأميرين المذكورين من أملاكهمـا بالقطر المصرى ، وكان يحقد عليهما لمنافستهما اياه على العرش ، واشتد عداؤه لهما لمقاومتهما اياه فى تغيير نظام التوارث ، وقد حصـل اسماعيل على فرمان مايو سنة ١٨٦٦ الذى جعل وراثة العرش فى بكر أبنائه .

ومن قرض سنة ١٨٦٦ والديون السائر أدى الرشوة التى بذلها لسلطان تركيا ولحكام الاستانة للحصول على هذا الفرمان، وقد بلغت هذه الرشوة ثلاثة ملايين جنيه تقريبا ، ودفع ثمن أملاك الأميرين مصطفى فاضل ومحمد عبد الحليم ٠

فترى مما تقدم أن هذه القروض ضاعت فيما لا ينفع البلاد، لأن تغيير نظام توارث العرش كان مسألة شخصية لاسماعيل ، وكـذلك شراء أمـلاك أخيـه وعمـه ، فكأن اسـماعيل اقترض هذه الديون لكى تتسع أملاكه ، وتحقيقا لأطماع شخصية وارضاء لحزازات عائلية لا شأن للبلاد فيها ٠

واقترض سنة ١٨٦٧ قرضا جديدا قيمته ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه، ولم يعرف سبب ظاهر لهذا القرض ، واختلفت الآراء فى تعليله، ولكن التعليل الصحيح أن الخديو علاوة على القروض السابقة كان لا يفتأ يستدين ديونا سائرة من المرابين الأجانب المقيمين فى مصر، ولم يكن لهذه الديون حساب ظاهر ، ولا حد معلوم ، وكل ما عرف عنها أنها كانت ذات فوائد فاحشة جدا ، وكان العمل فى ذلك الحين قائما على قدم وساق لتجديد حديقة الأزبكية ، وبناء دار التمثيل، ومضمار لسباق الخيل ، وبناء قصور عابدين والقبة والزعفران والجيزة والقصر العالى وسراى مصطفى باشا فاضـل برمل الاسكندرية ، فكل هذه المبانى كان ينفق عليها من الديون ، ثابتة كانت أو سائرة ، لأن ميزانية الحكومة ما كانت تسمح باقامتها ٠

وقد بلغت الديون السائرة الى ذلك الحين نحو عشرة ملايين جنيه ، وهو مبلغ باهظ يثقل كاهل الخزانة ، وفوائده تبتلع جزءا كبيرا من الايراد ، فتذرع الخديو الى عقد قرض سنة ١٨٦٧ برغبته في سداد فوائد هذه الديون ، وفي تحويل الديون السائرة جميعها الى دين ثابت ، على أن الديون وفوائدها بقيت كما كانت ، فلا هي سددت ولا فوائدها سددت ، ولا تم تحويلها .

واشترك الخديو في المعرض العام الذى أقيم بباريس سنة ١٨٦٧ ، وظهر فيه بمظهر فخم يأخذ بالألباب ، فأنفق في هذا السبيل وفي رحلته بباريس ملايين الجنيهات ، وكان غرضه من هذا الاسراف هو الظهور بمظهر العظمة واجتذاب ثقة البيوت المالية الأجنبية لتفرضه من جديد ، وضاع من قبل جانب من هذه الملايين في الرشاوى والهدايا التي بذلها في الاستانة ليحصل على لقب (خديو) ، وقد نال الفرمان الذى منحه هذا اللقب في ٨ يونية سنة ١٨٦٧ .

فلهذه الأسباب خلت خزانة الحكومة من المال ، ولجأ الخديو الى الاستدانة من جديد .

واقترض فعلا سنة ١٨٦٨ قرضا جديدا قدره ١١٫٨٩٠٫٠٠٠ جنيه من بنك أوبنهايم ، وكان من شروط هذا القرض أن يكف الخديو عن الاستدانة مدة خمس سنوات .

أنفق اسماعيل من القرض نحو مليوني جنيه في الاستانة على حفلات وولائم ورشاوى للسلطان ولرجال حكومته .

وأنفق جزءا منه في اتمام بناء قصوره في عابدين والقبة والعباسية والجيزة وسراى مصطفى باشا بالاسكندرية ، وتأثيثها بفاخر الأثاث والرياش ، من هذا القرض أيضا أنفق النفقات الباهظة على حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، وقد بلغت مليونا ونصف مليون جنيه تقريبا .

ولم تكد تنتهي حفلات القناة حتى أخذ معين الماء ينضب من الخزانة ، وكان اسماعيل مقيدا بما اشترطه في القرض السابق ،

وهو عدم الاقتراض لمدة خمس سنوات ، فضلا عن أنه خرج من حفلات القناة وقد ألقى فى روع ضيوفه الأوروبيين أن خزائن مصر تفيض بالمال ، وفى الواقع ان مظاهر هذه الحفلات وما أنفق عليها من الملايين ، لا تدع مجالا للشك فى ذلك ، فلم يجد من اللائق ولا من السائغ أن يمد يده الى البيوت المالية ويطلب قرضا جديدا !!

ولكنه كان فى حاجة الى المال فابتكر له وزيره اسماعيل صديق (المفتش) طريقة خطرة اتبعها فى صيف سنة ١٨٦٩ ، وهى أنه باع الى التجار الافرنج مقـــادير كبيرة من بذرة القطن ، تربى على خمسمائة ألف أردب ، قبض ثمنها نقدا ، ووعد بتسليمها بعد خمسة أشهر ، أى بعد جنى محصول القطن الجديد ٠

ولما انقضى الميعاد اتضح أن الحكومة باعت ما لديها من محصول القطن مرة ثانية . وقبضت ثمنه ، وقد سويت هذه الفضيحة بأن طلبت الحكومة من التجار أن يبيعوها بسعر ٧٨ قرشا ما اشتروه منها بسعر ٧١ قرشا ، واتفقوا على أن تدفع لهم القيمة افادات مالية تسرى عليها فوائد ١٢ ٪ سنويا أى أن ربحهم بلغ ١٠ ٪ سنويا ٠

وتكررت هذه العملية غير مرة فى سنوات عدة ، فقد كانت الحكومة تبيع للتجار الأجانب غلالا ليست فى حوزتها ولا ينتظر أن تحوزها ، وتتسلم الثمن فورا ، فاذا جاء موعد تسليم الغـلال اشترتها من ذات التاجر الذى باعته اياها ، ودفعت ثمنها أوراقا وسندات على الخزانة ، مع فوائد لا تقل عن ١٨ ٪ أو ٢٠ فى المائة، ولا تحتسب الفوائد على المبلغ الأصلى الذى أخذته من التاجر ، بل على المبلغ التالى المقدر ثمنا لغلاله ، وناهيك بما يصيب الحكومة من جراء هذه العمليات من الخسائر الفادحة ٠

واذ كان اسماعيل مقيدا بعدم الاقتراض طبقا لشروط سلفة سنة ١٨٦٨ ، ومن جهة أخرى فقد لفتت القروض وضخامتها أنظار الحكومة التركية ، فحاولت وضع حد لها ، وحظرت على الخديو بمقتضى فرمان سنة ١٨٦٩ أن يقترض الا باذنها ، ولكن اسماعيل

كان يريد الاقتراض بأية وسيلة ، فلم ير بدا من أن يعقد قرضا لحسابه الخاص .

فاستدان فى ابريل سنة ١٨٧٠ من البنك الفرنساوى المصرى ٧٫١٤٢٫٨٦٠ جنيه بفائدة ٧٪ بضمان أطيانه الخاصة ، عدا الأطيان التى رهنها سابقا ، ولذلك سمى هذا القرض قرض الدائرة السنية الثانى ، وصدر بواقع ٦٧ فى المائة ، فكانت النتيجة أنه لم يدخل منه الى خزائن الخديو سوى ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، ولكنه يسدد على القيمة الاسمية وهى ٧٫١٤٢٫٨٦٠ جنيها فى عشرين سنة ، وبلغ العبء الذى احتملته الدائرة السنية سنويا لأداء هذا الدين ٦٦٨٫٩٦٠ جنيها أى ١٣ فى المائة تقريبا من رأس المال المدفوع .

وبلغت الديون السائرة نحو خمسة وعشرين مليون جنيه .

أما فوائد هذه الديون السائرة ، فلم يكن لها حساب معلوم ، فالسيو جليون دنجلار Géllion Danglar, يقول فى رسائله (١) ان الدائرة الخاصة وهى دائرة الخديو اسماعيل كانت تقترض بفائدة ٢٠٪ و ٢٤٪ فى السنة ، وان الحالة المالية فى السنة التى كتب فيها رسائله (عام ١٨٦٧) كانت سيئة لدرجة أن الموظفين لم تدفع لهم رواتبهم مدة ثمانية أشهر .

الحالة المالية سنة ١٨٧٠

يتضح مما تقدم مبلغ مابهظ كاهل الخزانة العامة من القروض المتتابعة التى عقدها اسماعيل ، ومقدار الارتباك الذى وقعت فيه الحكومة وأوصلها الى حالة سيئة من فقدان التوازن .

على أن هذه الحالة ، لو عولجت بالحكمة وحسن التدبير ، لأمكن انقاذ البلاد من الكوارث المالية التى وقعت من بعد ، فلو وضع اسماعيل حدا لاسرافه وأهوائه ، لسار بالبلاد فى طريق

(١) رسائل عن مصر الحديثة ص ٦٦ .

مأمون ، وأمكنه مع الزمن اعادة التوازن الى مالية الحكومة ، ولكنه على العكس استمر فى خطته ، وتلت القروض قروض ، حتى فقدت البلاد استقلالها المالى .

ومما جعل اسماعيل يتمادى فى الاسراف والاستدانة أنه لم تكن فى البلاد هيئات نيابية تراقب تصرفات الحكومة ، وتحاسبها على الأموال التى تبددها ، أما مجلس شورى النواب فكان يكتفى بالبيانات الملفقة أو المبهمة التى يقدمها وزير المالية اسماعيل صديق فى كل انعقاد ، ولم يكن بالمجلس شعور بالمسئولية يدفع أعضاءه الى الاعتراض على سياسة الحكومة المالية ، وما جرته من الخراب على البلاد ، وكذلك لم يوجد من بين بطـــانة اسماعيل من كان يعترض اعتراضا جديا على تلك السياسة ، أو يبصر الخـــديو بعواقبها الوخيمة ، ولو وجدت حكومة مسئولة أمام هيئة نيابية صحيحة لما استمر الخديو وحاشيته على هذه السياسة المحزنة .

وفى سنة ١٨٧٠ نشبت الحرب بين فرنسا وألمانيا ، وهى الحرب المشهورة بالحرب السبعينية ، فاضطربت الأسواق فى أوروبا ، وقبضت البيوت المالية يدها عن الاقراض ، وكان الخديو فى حاجة الى المال ، فعمد وزير ماليته الى زيادة الضرائب ، ولكن هذا المعين لم يف بطلباته ، فابتدع طريقة تعد بمنزلة قرض اجبارى يجبى من الأهالى ، أو ضريبة جديدة تفرض على أطيانهم ، وصدر بها القانون المشهور بلائحة المقابلة فى ٣٠ أغسطس سنة ١٨٧١ .

يقضى هذا القانون بأنه اذا دفع ملاك الأطيان الضرائب المربوطة على أطيانهم لمدة ست سنوات مقدما تعفى الحكومة أطيانهم على الدوام من نصف المربوط عليها ولكى يحصلوا على هذه الميزة يدفعون ضرائب السنوات الست دفعة واحدة أو على أقساط متتابعة ، لا تزيد مدتها عن ست سنوات ، علاوة على الضريبة السنوية ، وتحسب لهم فوائد عما يدفعونه مقدما بواقع ٨٪ .

وقد جعل هذا القانون دفع المقابلة اختياريا ، ولكن الحكومة لجأت فى تنفيذه الى التوريط بالنسبة للباشوات وكبار الأعيان ،

والى الضغط والاكراه والضرب بالكرباج بالنسبة لسائر الأهلين، ولولا الاكراه لما ارتضى الناس المخاطرة بأموالهم ، لأنهم يعلمون مبلغ عهود الحكومة ، وخاصة فى المسائل المالية ، فهم لم يدفعوا المقابلة الا مكرهين ، فكانت ضريبة جديدة أو سلفة اجبـــارية زادتهم ارهاقا وضنكا .

وقد استطاعت الحكومة أن تجبى من هذه الضريبة خمســة ملايين من الجنيهات لغاية آخر سنة ١٨٧١ ، وبلغ مجموع ما جبته منها نيفا وثلاثة عشر مليون جنيه ونصفا لغاية سنة ١٨٧٧ .

وانتظر اسماعيل بفارغ الصبر انتهاء السنوات الخمس التى حظر فيها على نفســــه عقد قروض جديدة تنفيذا لشروط سلفة سنة ١٨٦٨ ، وسعى جهده فى الأستانة وبذل فيها الأموال الطائلة من الرشاوى والهدايا ليلغى فرمان سنة ١٨٦٩ ويحصل على الفرمان الذى يبيح له الاقتراض من غير حاجة الى اذن الحكومة التركية ، فناله فى سنة ١٨٧٢ .

فلم تكد تنتهى هذه المدة ويشعر اسماعيل بفك اعتقاله من هذا القيد . حتى عقد قرضا جديدا من بيت أوبنهايم المـــالى قدره ٣٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، وهو أكبر القروض من جهـــــة القيمة ، وأسوؤها من جهة الشروط ، وقد دعاه الماليون « القرض الكبير »، وهو حقيق بأن يسمى « القرض المشئوم » .

وكانت حجته فى هذا القرض أنه اعتزم سداد الديون السائرة، ولكنه فى الواقع لم يخصص شيئا منه لهذه الغاية ، وبقيت الديون السائرة كما كانت .

عقد هذا القرض بفائدة ٧ ٪ وقيمة سنداته ٨٤½ فى المائة ، وبلغ ما دخل الخزانة منه بعد استبعاد النفقات والخصم والسمسرة ٢٠٫٧٤٠٫٠٧٧ جنيه ، أى بنقص ٣٧ ٪ من قيمة الدين الاسمية ، فخسرت الحكومة من أصل القرض نيفا وأحد عشر مليون جنيه ، فى حين أنها التزمت بقسط سنوى لسداده يبلغ ٢٫٢٦٥٫٦٧١ جنيه ، ثم أنها لم تقبض المبلغ نقدا ، بل تســـــلمت منه فقط

أحد عشر مليون جنيه ، والباقى وقدره تسعة ملايين جعلت سندات للخزانة المصرية •

ومن هذا يتبين أن قرضا ألقى على عاتق البلاد عبئا جسيما مقداره اثنان وثلاثون مليون جنيه ، بلغ صافى ما تسلمته الحكومة منه نقدا أحد عشر مليون جنيه فقط ، وليس فى تاريخ القروض، فى العالم قاطبة ، قرض يعقد بمثل هذه الشروط الجائرة ، بل هذه السرقة العلنية ، كما أنه لا يمكن أن توجد حكومة عندها قليل من الشعور بالمسئولية تقبل التعاقد على مثل هذه الشروط•

ومن تهكم الأقدار أن السنة التى عقد فيها اسماعيل هذا القرض المنحوس هى ذات السنة التى نال فيها فرمان سنة ١٨٧٣ الجامع الذى خوله أقصى ما حصل عليه من المزايا ، أو بعبارة أخرى ان اسماعيل قد بلغ أوج نفوذه الرسمى فى علاقته مع تركيا فى الوقت الذى أشرفت فيه البلاد على حالة من الافلاس أفقدتها استقلالها المالى ثم السياسى •

واحتاج اسماعيل الى قرض آخر سنة ١٨٧٤ ، فابتدع له وزير ماليته اسماعيل صديق (المفتش) وسيلة جديدة يقترض بها من الأهالى دينا سمى (دين الرزنامة) •

كانت مصلحة « الرزنامة » تودع فيها رءوس أموال للمستحقين مقابل دفع معاشات لهم ، فابتكر اسماعيل صديق فكرة جديدة ، وهى أن يستثمر الأهالى أموالهم فى مصلحة الرزنامة ، بأن يدعوا فيها المدخر من هذه الأموال على أن تستثمرها المصلحة فى مشروعات صناعية وتجارية ، وتصدر الرزنامة سندات ايراد دائم بمالا يزيد عن خمسة ملايين من الجنيهات ، على أن تكون المائة فيها مائة ، ويكون ثمن هذه السندات متراوحا بين جنيهين ونصف وخمسة جنيهات ، وتدفع المصلحة فوائد عنها بحساب ٩ ٪ •

وقد أوجس الأهلون شرا من هذه الطريقة فى ابتزاز أموالهم، لأنهم عالمون بمصيرها ، لكن الحكومة لجأت الى الطريقة التى اتبعتها فى تحصيل المقابلة ، فبلغ ما ساهم فيه الأهالى من سندات

هذا القرض الاجبارى ۳٫۳۳۷٫۰۰۰ جنيه ، لم يدخل الخزانة منها سوى ۱٫۸۷۸٫۰۰۰ جنيه ، ولم تدفع من فوائدها سوى جزء من فوائد السنة الأولى ٠

ولم تكف هذه القروض طلبات الخديو وبطانته ، بل استولوا أيضا على ما فى خزائن بيت المال والأوقاف الخيرية من الأموال المودعة على ذمة الخيرات أو لحساب القصر والأيتام ٠

وبلغ ما أخذ من هذا الباب ٥٣٧٫٠٠٠ جنيه ٠

واستمر اسماعيل صديق يستدين بواسطة المالية من المرابين الأجانب ، فازداد الدين السائر تضخما .

وثمة مطلوبات من الحكومة لتجار ومقاولين ودوائر ، أو رصيد حسابات جارية للبنوك ورواتب متأخرة للموظفين وأرباب المعاشات وقد بلغت هذه المطلوبات ٦٫٢٧٦٫٠٠٠ جنيه أضيفت الى الدين السائر ٠

التدخل الأجنبى فى شئون مصر المالية

لم يكن ممكنا أن يبقى استقلال البلاد سليما مع بلوغ القروض الحد الذى أوجزناه ، لأن هذه القروض هى أموال أجنبية ، دفعها ماليون ومرابون ينتمون الى دول أوروبية تطمح من قديم الزمن الى التدخل فى شئون مصر ، وهذه الملايين من الجنيهات المقترضة من شأنها أن تفقد البلاد استقلالها المالى ، كما يفقد الفرد استقلاله وكيانه الذاتى اذا ركبته الديون ، فيصبح أسير دائنيه ، والقروض التى استدانها الخديو صار لها من الفوائد ما يبتلع معظم ميزانية الحكومة ، وهذا وحده يعطيك فكرة عن فداحتها ، فلا عجب أن تكون النتيجة فتح أبواب التدخل الأجنبى فى شئون مصر على مصراعيه ، وقد بدأ هذا التدخل ماليا ، ولكنه كان يطوى فى ثناياه عوامل التدخل السياسى ، فكان تدخلا مزدوجا ٠

وقد أخذ هذا التدخل شكلا خطيرا لافتا للأنظار سنة ١٨٧٥، حين اشترت بريطانيا أسهم مصر فى قناة السويس ٠ وهى صفقة

خاسرة لأن شراء الحكومة البريطانية أسهم مصر فى القناة كان كارثة على مصر ، اذ كانت أول خطوة خطتها انجلترا نحو الاحتلال الذى وقع سنة ١٨٨٢ •

ولما ساءت حالة الخزانة ، ورأى اسماعيل أن البيوت المالية الأوروبية قد تزعزعت ثقتها فى كفاءة الحكومة المصرية ومقدرتها على الوفاء ، أراد أن يقدم لها برهانا على أن مصر مازالت رغم الديون الباهظة قادرة على السداد ، فابتكر وسيلة ظن أنها تصل به الى هذه الغاية ، وذلك أنه عرض سنة ١٨٧٥ على بريطانيا ايفاد موظف مالى كفء يدرس حالة الحكومة المالية ، ويعاون وزير المالية المصرية على اصلاح الخلل الذى يعترف به فى هذه الوزارة •

وكان تقدير اسماعيل أن هذه البعثة تحت تأثير ارشاده ونفوذه ، وما يحيطها به من الحفاوة والاكرام ، وما يلوح به أمامها من مظاهر البذخ والاسراف ، لا تلبث أن تقدم تقريرا بأن حالة الخزانة المصرية حسنة تسمح بالثقة بها ، فيرتكن على هذا التقرير، لكى يقنع البيوت المالية الأوروبية باقتراضه من جديد ، فالغاية كما ترى لم تكن متفقة مع مصلحة البلاد ، لأنه على فرض أن هذه البعثة تنساق الى ارشاداته ، فان اقتراضه من جديد لم يكن علاجا ناجعا لحالة البلاد المالية ، بل هو مضاعفة للداء الذى أصابها من القروض •

وقد اتجه اسماعيل صوب انجلترا فى طلب هذه البعثة ، لأن فرنسا كانت قد خرجت مضعضعة من الحرب السبعينية ، ومع أنها كانت قبلة أنظاره من قبل ، فان هزيمتها فى تلك الحرب جعلته يدير شراعه نحو بريطانيا ، فطلب اليها ايفاد تلك البعثة .

لبت الحكومة الانجليزية نداء اسماعيل ، لأنها وجدت فى طلبه فرصة جديدة للتدخل فى شئون مصر ، وأوفدت اليه بعثة مؤلفة من أربعة من موظفيها برياســـة المستر « استفن كيف » "Cave" أحد الماليين المعدودين من الانجليز ، ومن هنا جاءت تسميتهـــا « بعثة كيف » •

كانت هذه البعثة وما خولها اسماعيل من حق معاونة وزير المالية على اصلاح الخلل الذى أصاب وزارته ، مظهرا من مظاهر التدخل الأجنبى فى شئون مصر الداخلية ، وقد وقع هذا التدخل بعد أن أبرم اسماعيل بيع الأسهم المصرية فى القنـــاة ، فكانتا ضربتين قاصمتين ، أصابتا مصر فى استقلالها المالى وكيانها القومى .

جاءت البعثة الى مصر وفحصت حالة مصر الماليـــة وقدمت تقريرها . أشارت فيه الى سوء حالة المالية المصرية ، واقترحت كشرط ضرورى لاصلاحها أن تخضع للمشورة الأوروبية ، بأن تنشىء الحكومة مصلحة للرقابة على ماليتها برياسة شخص ذى ثقة أشارت تلميحا بأن يكون بريطانيا ، واشترطت أن يحترم الخديو قرارات هذه المصلحة ولا يعقد قرضا الا بموافقتها .

وسارت الضائقة المالية فى طريقها ، وأعوز الخزانة المصرية المال اللازم لأداء أقساط الديون ، وأخيرا عجزت عن الوفاء ، فأصدر الخديو مرسوما فى ٦ ابريل سنة ١٨٧٦ بتأجيل دفع السندات والأقساط المستحقة على الحكومة فى ابريل ومايو ثلاثة أشهر ، ولم يكن تحديد هذه الثلاثة الأشهر الا للمحافظة على الظواهر ، وكان الغرض هو التأجيل الى ما شاء الله ، وأعلن هذا المرسوم فى بورصة الاسكندرية يوم ٨ ابريل ، فكان هذا ايذانا بالتوقف عن الدفع ، أو بعبارة أخرى بالافلاس ، ولما ذاع هذا المرسوم سرى السخط والذعر الى الأسواق المالية الأوروبية ، واستهدف اسماعيل لمطاعن الماليين والمرابين الأجانب ، وانقلبوا يتهددون ويتوعدون ، بعد أن كانوا حتى الأمس يداهنون ويتملقون .

شعر الخديو بارتباك الحالة المالية ، وما تنطوى عليه من الأخطار ، وما يجر اليه سخط الماليين الأوروبيين من العواقب ، فأراد استرضاء الدائنين بوضع نظام يكفل لهم استيفاء ديونهم ، فطلب الى وكلاء الدائنين بمصر وضع النظام الذى يرتضونه ، فقدم وكلاء الماليين الفرنسيين مشروعا بانشاء (صندوق الدين) وتوحيد الديون .

واستجاب اسماعيل لمطالب وكلاء الدائنين الفرنسيين ، وأصدر مرسوما فى ٢ مايو سنة ١٨٧٦ بانشاء (صندوق الدين) ومهمته أن يكون خزانة فرعية للخزانة العامة تتولى تسلم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية ، وخصص له ايراد مديريات الغربية، والمنوفية ، والبحيرة ، وأسيوط ، وعوايد الدخولية فى القاهرة والاسكندرية ، ايراد جمارك الاسكندرية والسويس وبورسعيد ورشيد ودمياط والعريش ، وايراد السكك الحديدية ، ورسوم الدخان ، وايراد المصلح (ضريبة الملح) ، ومصايد المطرية (دقهلية)، ورسوم الكبارى ، وعوايد الملاحة فى النيل ، وايراد كوبرى قصر النيل ، وايراد أطيان الدائرة السنية ، أى أنه خصص لسداد الديون معظم موارد الخزانة المصرية .

ولا نزاع فى أنه ، من جهة الحق والقانون ، لم يكن للدائنين الأجانب أن يطلبوا انشاء هيئة مالية رسمية داخل الحكومة بتلك السلطة ، ولكن فكرة الطمع والاستعمار ، وغلبة القوى على الضعيف ، هى التى أملت مشروع صندوق الدين لاستغلال موارد البلاد ، وفرض الوصاية الأوروبية على ماليتها .

وفى ٧ مايو سنة ١٨٧٦ ، أصدر الخديو مرسوما ثانيا بتحويل ديون الحكومة ودين الدائرة السنية والديون السائرة الى دين واحد ، سمى (الدين الموحد) قدره ٩١٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه انجليزى، بفائدة سبعة فى المائة ، يسدد فى ٦٥ سنة ، والغرض من هذا المرسوم توحيد الديون وتأمين الدائنين على استيفاء ديونهم .

ولكى يطمئن الدائنون على حسن ادارة وزارة المالية ، أصدر الخديو فى ١١ مايو سنة ١٨٧٦ مرسوما ثالثا بانشاء (مجلس أعلى للمالية) ، مؤلف من عشرة أعضاء ، خمسة أجانب ، وخمسة وطنيين ، ومن رئيس يعينه الخديو ، ويتألف هذا المجلس من ثلاثة أقسام ، القسم الأول يختص بمراقبة خزائن الحكومة ، والثانى بمراقبة الايرادات والمصروفات (وهى غير المراقبة الثنائية التى سيرد الكلام عنها) ، والثالث بتحقيق الحسابات ، ويبدى

المجلس ــ رأيه فى ميزانية الحكومة السنوية التى يضعها وزير المالية قبل نهاية كل سنة بثلاثة أشهر ، وعين أحد أعضاء مجلس الشيوخ الايطالى رئيسا لهذا المجلس !

الرقابة الثنائية البريطانية الفرنسية على شئون مصر المالية

ان انشاء صندوق الدين ، وانشاء مجلس أعلى مختلط للمالية، وتوحيد الديون ، كل هذه الوسائل ، على ما فيها من افتيات على سلطة الحكومة ، لم تقنع الحكومة البريطانية ، ولم تر فيها الكفاية لضمان مصالح الدائنين ، فامتنعت عن تعيين مندوب عنهـــا فى صندوق الدين ، وجاهدت بأن من الواجب وضع تسوية أخرى لكفالة مصالح الدائنين .

والواقع ان هذا لم يكن غرضها الحقيقى ، بل كانت ترمى الى وضع نظام جديد يمكنها من التدخل الفعلى فى ادارة الحكومة المصرية ، ويجعل مصر أكثر خضوعا للدول الأجنبية فى سياستها وتصرفاتها الداخلية ، واتفقت مع فرنسا على خطة موحدة لاكراه اسماعيل على قبول الأوضاع التى يقترحانها ، وأهمها فرض الرقابة الأوروبية على المالية المصرية ، ووضع السكك الحديدية ، وميناء الاسكندرية تحت ادارة لجنة مختلطة .

وتدخل قنصلا انجلترا وفرنسا للضغط على الخديو واكراهه على الاذعان ، فتردد اسماعيل فى قبول هذه المطالب الجائرة ، وقامت فى البلاد حركة استياء شديدة من جورها ، ولكن الخديو خشى على مركزه أن تزعزعه مقاومة الدولتين البريطانية والفرنسية، فنزل أخيرا على ارادتهما ورضى بالرقابة الثنائية سنة ١٨٧٦ .

الوزارة المختلطة

وأعقب فرض الرقابة الثنائية تاليف (لجنة تحقيق عليا) أوروبية سنة ١٨٧٨ لفحص شئون الحكومة المالية . ثم تعيين

وزارة مختلطة فى نفس السنة برياسة نوبار وفيهـــا وزيران أوروبيان أحدهما بريطانى وهو ريفرس ويلسن "Rivvers Wilson" وقد تولى وزارة المالية . والثانى فرنسى وهو دى بلينيير De Bligniéres وقد تولى وزارة الأشغال . فكان تعيين هذه الوزارة اهانة للبلاد وصدمة لشعور الأهلين الذين سموها الوزارة الأوروبية .

النهضة الوطنية والسياسية

فهذا التدخل الأجنبى فى شئون البلاد المالية والسياســـية والعدوان على استقلالها وكرامتها كان من الأسباب الجوهرية التى حفزت النفوس الى التبرم بنظام الحكم ، والتخلص من مساوئه ، لأن سياسة الحكومة هى التى أفضت الى هذا العدوان الصارخ .

ومن هنا جاءت النهضة الوطنية والسياسية فى مصر ، ووجدت مبادىء جمال الدين الأفغانى وتعاليمه سبيلا الى النفوس ، فكانت من العوامل الهامة فى ظهور هذه النهضة التى شغلت السنوات الأخيرة من عهد اسماعيل وكانت من أدوار الحركة القومية .

كان من مظاهر هذه النهضة نشاط الصـــحف السياسية ، واقبال الناس عليها ، فمن الصحف التى كان لجمال الدين يد فى انشائها أو تحريرها جريدة (مصر) التى ظهرت سنة ١٨٧٧ ، وهى جريدة أسبوعية لمحررها أديب اسحق ومديرها سليم نقاش وقد أنشأ الاثنان أيضا سنة ١٨٧٨ صحيفة يومية بالاسكندرية باسم جريدة (التجارة) وسياسة الصحيفتين وطنية حماســـية تجلت فيها تعاليم جمال الدين وروحه وكانت له فى الصحيفتين بعض المقالات يكتبها أو يمليها على تلاميذه وكانت صحيفة (مصر) تنشر له بعض المقالات تارة باسمه ومرة باسم (المزهر بن وضاح) .

وجريدة (مرآة الشرق) وقد تولاها سليم عنحورى ثم ابراهيم اللقانى بايعاز من جمال الدين .

وجريدة (أبو نضارة) ليعقوب صنوع الذى كان على صلة به .

وكان لهذه الصحف وغيرها فضل كبير فى انارة البصائر

والأفكار وتوجيه الأنظار الى العناية بشئون البلاد عامة وتبرم المواطنين بحالتها السياسية والمالية . فكانت من عوامل النهضة السياسية والأدبية فى البلاد .

ومن مآثر جمال الدين الأفغانى ظهور روح اليقظة والمعارضة فى مجلس شورى النواب على يد نواب نفخ فيهم من روحه وعلى رأسهم النائب عبد السلام المويلحى الذى يعد من تلاميذه الأفذاذ. وانك لتلمس الصلة الروحية بينهما ، من الكلمات والعبارات الرائعة التى كان المويلحى يجهر بها فى جلسات مجلس شورى النواب ، فان هذه العبارات هى قبس من روح الحكيم الأفغانى .

وقد جاء ذكر النائب المويلحى ضمن تلاميذ جمـــال الدين ومريديه على لسان سليم العنحورى الأديب السورى حين زار مصر ووصف مكانة جمال الدين بقوله :

« وفى خلال سنة ١٨٧٨ زاد مركزه خطرا وسما مقامه ، لأنه تداخل فى السياسات وتولى رئاسة جمعية (الماسون) العربية وصار له أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية ، مثـــل محمود باشا سامى البارودى الذى نفى أخيرا مع عرابى الى جزيرة سيلان ، وعبد السلام بك المويلحى النائب المصرى فى دار الندوة، وأخيه ابراهيم (المويلحى) كاتب الضابطة ، وكثر سواد الذين يخدمون أفكاره ، ويعلون بين الناس مناره ، من أرباب الأقلام ، مثل الشيخ محمد عبده ، وابراهيم اللقـــانى ، وعلى بك مظهر ، والشاعر الزرقانى ، وأبى الوفاء القونى فى مصر (القاهرة) ، وسليم النقاش ، وأديب اسحق ، وعبد الله نديم فى الاسكندرية».

* * *

دخلت الحياة النيابية منذ سنة ١٨٧٦ دورا جديدا امتـــاز بظهور روح النهضة والمعارضة فى نفوس أعضاء مجلس شورى النواب وبدت هذه الروح فى مناقشاتهم وأعمـــالهم ومواقفهم . وأخذت مظاهر الحياة والنشاط ترتسم فى أفق المجلس بعد أن كان يخيم عليه الخمول والجمود فى الأدوار السابقة .

فلما اجتمع المجلس فى نوفمبر سنة ١٨٧٦ كان جوابه على خطبة العرش مكتوبا بأسلوب جديد وروح جديدة تختلفان عن عبارات التملق البالغ التى كانت ترد فى الأجوبة السابقة ، وتضاءلت فيه أساليب العبودية للخديو ، مما دل على تطور روح المجلس واستشعار النواب بكرامتهم وحقوقهم ، ويمتاز الجواب أيضا بايجاز عباراته وارتقاء أسلوبه بالنسبة لأسلوب الأجوبة السابقة ، وهذا ينبىء بتطور الأفكار وتقدم لغة الكتابة والانشاء ،

وبرز فى ميدان النقاش أعضاء أكفاء برهنوا على حصافة فى الرأى وقدرة فى المنطق ، وسداد فى المقصد ، نذكر منهم على سبيل المثال (لا على سبيل الحصر) : محمود العطار ، وعبد السلام المويلحى ، ومحمد راضى ، وعثمان الهرميل ، ومحمود سالم ، وبدينى الشريعى ، وابراهيم الجيار ، وغيرهم ،

وقد أصدرت الحكومة مرسوما فى يناير سنة ١٨٧٩ قضى بأن القوانين المتعلقة بالشئون المالية تصدر بعد تقريرها فى مجلس الوزراء والتصديق عليها من الخديو ، وأغفل مجلس شورى النواب، ففى جلسة تالية لصدور هذا المرسوم اعترض النائبان محمود العطار وعبد السلام المويلحى على اغفال المجلس ، ومطالبا بعرض القوانين المالية عليه ووجوب اقراره لها ، ووافق النواب على هذا الاعتراض ، فحدثت أزمة بين المجلس والحكومة ، وازداد نفور الأمة من وزارة (نوبار) واتسعت حركة المعارضة ضدها داخل المجلس وخارجه ،

وعطلت الوزارة جريدة (التجارة) لأديب اسحق وجريدة (الوطن) لميخائيل عبد السيد خمسة عشر يوما لاثارتهما الخواطر فى كتاباتهما ،

ثورة ضباط الجيش ـ ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩

وفى خلال مدة التعطيل وقعت ثورة ضباط الجيش على وزارة نوبار (١٨ فبراير سنة ١٨٧٩) ، وكانت هذه الثورة صدى لشعور المواطنين ضد هذه الوزارة ، فقد أسرفت فى ممالأة

الدائنين الأجانب وعينت كثيرا من الأوروبيين فى المناصب الهامة للحكومة • وأهدرت حقوق الموظفين الوطنيين وعزلت طائفة منهم• وأحالت الى الاستيداع ٢٥٠٠ من ضباط الجيش بحجة الحاجة الى ضغط المصروفات •

فثار الضباط واحتشدوا يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ واتجهوا الى وزارة المالية • واتصلوا بطائفة من أعضاء مجلس شورى النواب ليشاركوهم فى مظاهرتهم • واكتفى بعضهم بالسير فى موكب المظاهرة • راكبين حميرهم • فكان هذا العمل اشتراكا من هيئة المجلس فى المظاهرة • واعتدى الثائرون على (نوبار) بالضرب• وطرحوه أرضا • كما اعتدوا على (ريفرس ويلسن) وزير المالية• واقتحموا وزارة المالية • وحبسوا باحدى غرفها نوبار وريفرس ويلسن ورياض • وصار الموظفون الأجانب الذين بالوزارة تحت رحمة الثوار •

زلزلت هذه الثورة مركز وزارة نوبار • فاستقالت فى اليوم التالى • وتألفت وزارة جديدة برئاسة توفيق بن اسماعيل وفيها الوزيران الأوروبيان ريفرس ويلسن ودى بلينيير • وخولا حق (الفيتو) أي وقف أى قرار لمجلس الوزراء لايرضيان به • فاستمرت الخواطر ثائرة •

وسلكت وزارة توفيق ازاء مجلس شورى النواب مسلك العنت والارهاق فاستصدرت من اسماعيل مرسوما بانفضاضه بحجة انتهاء مدته • ولم تكن قد انتهت • فرفض المجلس الاذعان لهذا القرار وكتب النواب عريضة بذلك الى الخديو اسماعيل •

الجمعية الوطنية ـ ابريل سنة ١٨٧٩

ولم يكتفوا بذلك بل تشاوروا فيما يجب عمله تجاه هذه الأزمة • وأشركوا معهم فى التشاور العلماء وأصحاب الرأى والأعيان والتجار • واجتمعوا جميعا بدار السيد على البكرى نقيب الأشراف • ثم فى منزل اسماعيل راغب وزير المالية السابق

ورئيس مجلس شورى النواب فى أول انشائه • وعقدوا بداره (جمعية وطنية) واتفقوا على وضع بيان بما استقر عليه رأيهم • ويتضمن مشروع تسوية مالية يعارضون به المشروع الذى وضعه ريفرس ويلسن وزير المالية والذى كان أساسه جعل مصر فى حالة عجز عن سداد ديونها • أى فى حالة افلاس • وجعلوا أساس مشروعهم اعتبار ايرادات الحكومة كافية للوفاء بمصروفاتها بما فيها أقساط الديون • وذلك بكفالتهم • وتأليف وزارة وطنية • وتعديل نظام مجلس شورى النواب وتخويله السلطة المعترف بها للمجالس النيابية فى أوروبا وتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمامه •

وقد وقع على بيان الجمعية الوطنية ستون من أعضاء مجلس شورى النواب • وستون من العلماء والهيئات الدينية • وفى مقدمتهم شيخ الاسلام • وبطريرك الأقباط • وحاخام الاسرائيليين • و ٤٢ من الأعيان • و ٧٢ من الموظفين العاملين والمتقاعدين • و ٩٣ من ضباط الجيش •

وقدم وفد من الأحرار (اللائحة الوطنية) كما سموها الى الخديو اسماعيل • فلم ير بدا من الاستجابة لمطالبهم • وعهد الى محمد شريف تأليف الوزارة الجديدة • فألفها خالية من الوزيرين الأجنبيين • وبدا من خطاب اسماعيل الى شريف أنه يقر اللائحة الوطنية • وقرر فيه مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس شورى النواب • وبذلك اكتملت سلطة هذا المجلس بتقرير هذا المبدأ الذى هو حجر الزاوية فى النظام الدستورى •

ولكن الدول الأوروبية وقفت للوزارة الوطنية بالمرصاد وسعت جهدها فى خلع اسماعيل • ووافقتها حكومة الاستانة على مؤامرتها • وأعلنت خلعه فى ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ •

وتولى توفيق مسند الخديوية • وكان أبرز عمل له أن أقصى شريف عن الوزارة وعطل الحياة النيابية زهاء سنتين حتى قامت الثورة العرابية •

الفصل الثالث

جمال الدين والثورة العرابية

لم يكن جمال الدين الأفغانى مناصرا لاسماعيل ، بل كان ينقم منه استبداده واسرافه ، وتمكينه الدول الاستعمارية من مرافق البلاد وحقوقها ، وكان يتوسم الخير فى توفيق ، اذ رآه وهو ولى للعهد ميالا الى الشورى ، ينتقد سياسة أبيه واسرافه ، وقد اجتمعا فى محفل الماسونية ، وتعاهدا على اقامة دعائم الشورى . وقال مرة لجمال الدين على مسمع من الحاضرين « انك أنت موضع أملى فى مصر أيها السيد » .

ولكن توفيق لم يف بعهـــــده بعد أن تولى الحكم فى يونية سنة ١٨٧٩ ، فقد بدا عليه الانحراف عن الشورى ، واســـتمع لوشايات رسل الاستعمار الأوروبى ، وفى مقدمتهم قنصل انجلترا العام فى مصر ، اذ كانوا ينقمون من السيد روح الثورة والدعوة الى الحرية والدستور ، فغيروا عليه قلب الخديو ، وأوعزوا اليه اخراجه من القطر المصرى ، وكان توفيق من الضعف والهوان بحيث لا يخالف أمر رسل الاستعمار الأوروبى .

جمال الدين والخديو توفيق

ذكر الأمير شكيب أرسلان فى ترجمته للسيد جمال الدين ان أول أثر ظهر لجمال الدين فى ميدان السياسة هو الحركة التى هبت فى أواخر أيام الخديو اسماعيل باشا وآلت الى خلعه من

الخديوية • وكان للسيد اليد الطولى فيها • ولما جلس توفيق باشا على كرسى مصر شكر لجمال الدين مساعيه • لكن لم يطل الأمر حتى دبت عقارب السعاية فى حقه • وجاء من دس الى الخديو الجديد أن السيد لن يقف عند هذا الحد وقد تحدثه نفسه بثورة ثانية وباقامة حكم جمهورى وما أشبه ذلك (١) » •

وفى خاطرات جمال الدين الأفغانى ان الخديو توفيق قال لجمال الدين : « مع الأسف ان أكثر الشعب خامل جاهل • لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقون من الدروس والأقوال المهيجة فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة » فقال جمال الدين مجاوبا « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية واخلاص ان الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده • ولكنه غير محروم من وجود العالم العاقل • فالنظر الذى تنظرون به الى الشعب المصرى وأفراده ينظرون به لسموكم • وان قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد على طريق الشورى فتأمرون باجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وبارادتكم • يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم » هذا أهم ما جرى فى هذه المقابلة التى كان فيها الخديو غير راض • وأسر فى نفسه البطش بجمال الدين • ولكن لم يظهر له شيئا من ذلك (٢) •

نفى جمال الدين من مصر

أصدر توفيق أمره بنفى جمال الدين ، وكان نفيه بقرار من مجلس الوزراء منعقدا برئاسة الخديو ، وكان تنفيذه غاية فى القسوة والغدر ، اذ قبض عليه ليلة الأحد السادس من رمضان

---

(١) حاضر العالم الاسلامى تأليف لوثروب ستودارد الأمريكى Lothrops Stwdard تعريب عجاج نويهض تعليقات مستفيضة للأمير شكيب أرسلان ص ٢٠١ •

(٢) خاطرات جمال الدين الأفغانى لمحمد المخزومى باشا ص ٤٦ •

سنة ١٢٩٦ — ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ، وهو ذاهب الى بيته ، هو وخادمه الأمين (عارف أبو تراب) ، وحجز فى الضبطية ، ولم يمكن حتى من أخذ ثيابه ، وحمل فى الصباح فى عربة مقفلة الى محطة السكة الحديدية ، ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة الى السويس ، وأنزل منها الى باخرة (١) أقلته الى الهند ، وسارت به الى بمباى .

ولم تتورع الحكومة عن نشر بلاغ رسمى من ادارة المطبوعات بتاريخ ٨ رمضان سنة ١٢٩٦ (٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٩) ذكرت فيه نفى السيد بعبارات جارحة ملؤها الكذب والافتراء ، مما لا يجدر بحكومة تشعر بشىء من الكرامة والحياء أن تسف اليه ، فقد نسبت اليه السعى فى الأرض بالفساد ، ويعلم الله أنه لم يكن يسعى الا الى يقظة الأمة ، وتحريرها من ربقة الذل والعبودية ، وذكرت عنه أنه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » . وحذرت الناس من الاتصال بهذه الجمعية .

ومن المؤلم حقا أن يتقرر نفى جمال الدين ويصدر مثل هذا البلاغ من حكومة يرأسها الخديو توفيق باشا وهو على ما نعلم من سابق تقديره للسيد ، ومن وزرائها محمود باشا سامى البارودى وزير الأوقاف وقتئذ ، وقد كان من أصدق مريديه وأنصاره ، فتأمل كيف يتنكر الأنصار والأصدقاء لأستاذهم ، والى أى حد يضيع الوفاء بين الناس !! ، ولا ندرى كيف أساغ البارودى نفى السيد جمال الدين واشترك فى احتمال تبعته ، واذا لم يكن موافقا على هذا العمل المنكر فلم لم يستقل من الوزارة احتجاجا واستنكارا ؟

---

(١) كان نقله الى الباخرة فى صبيحة الثلاثاء ٨ رمضان سنة ١٢٩٦ — ٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٩ .

لاشك أن موقف البارودى فى هذه الحادثة لا يمكن تســـــويغه أو الدفاع عنه بأى حال ·

جمال الدين أبو الثورة العرابية

نفى جمال الدين من مصر ، على أن روحه ومبادئه وتعاليمه تركت أثرها فى المجتمع المصرى ، وبقيت النفوس ثائرة تتطلع الى اصلاح نظام الحكم ، واقامته على دعائم الحرية والشورى ·

فجمال الدين هو من الوجهة الروحية والفكرية أبو الثورة العرابية ، وكثير من أقطابها هم من تلاميذه أو مريديه ، وحسبك أن خطيب الثورة العرابية عبد الله نديم كان تلميذا له · ومحمود سامى البارودى رئيس وزارة الثورة كان من أصدقائه ومريديه · والشيخ محمد عبده هو تلميذه الأكبر ، والثورة فى ذاتها هى استمرار للحركة السياسية التى كان لجمال الدين الفضل الكبير فى ظهورها على عهد اسماعيل ، ولو بقى فى مصر حين نشوب الثورة لكان جائزا أن يمدها بآرائه الحكيمة ، وتجاربه الرشيدة ، فلا يغلب عليها الخطل والشطط ، ولكن شاءت الأقدار ، والدسائس الانجليزية ، أن ينفى السيد من مصر ، وهى أحوج ما تكون الى الانتفاع بحكمته وصدق نظره فى الأمور ·

أقام المترجم بحيدر أباد الدكن ، وهناك كتب رسالته فى « الرد على الدهريين » وألزمته الحكومة البريطانية بالبقاء فى الهند حتى انقضى أمر الثورة العرابية ·

الفصل الرابع

عمله فى أوروبا

العروة الوثقى :

أخفقت الثورة العرابية ، واحتل الانجليز مصر ، فسمحوا للسيد بالذهاب الى أى بلد ، فاختار الشخوص الى أوروبا ، فقصد اليها سنة ١٨٨٣ ، وتعلم الفرنسية وهو كبير وأول مدينة وردها مدينة لندن ، أقام بها أياما معدودات ، ثم انتقل الى باريس ، وكان تلميذه الأكبر الشيخ محمد عبده منفيا فى بيروت عقب اخماد الثورة ، فاستدعاه الى باريس ، فوافاه اليها ٠

جمعية العروة الوثقى

وهناك أصدر جريدة (العروة الوثقى) ٠ وقد سميت باسم الجمعية التى أنشأتها ، وهى جمعية تألفت لدعوة الأمم الاسلامية الى الاتحاد والتضامن ٠ والأخذ بأسباب الحياة والنهضة ٠ ومجاهدة الاستعمار ، وتحرير مصر والسودان من الاحتلال البريطـــانى ، وكانت تضم جماعة من أقطاب العالم الاسلامى وكبرائه ٠ وكانت الدعوة الى اتحاد الشرقيين تتردد وتتوالى فى معظم مداولاتها ٠ اذ رأى الحكيمان ان تفرق الكلمة هو الثغرة الأولى التى ينفذ منها الاستعمار لتحقيق أهدافه فى البلاد الشرقية ٠

جريدة العروة الوثقى

وهذه الجمعية هى التى عهدت الى السيد باصدار تلك الجريدة لتكون لسان حالها ٠ فكان مديرا لسياستها ٠ والشيخ محمد عبده رئيسا لتحريرها ٠

واشتركا معا فى تحريرها ، وكانت مقالاتها جامعة بين روح جمال الدين ، وقلم الأستاذ الامام ، فجاءت آيات بينات فى سمو المعانى ، وقوة الروح ، وبلاغة العبارة ، وهى أشبه ما تكون بالخطب النارية ، تستثير الشجاعة فى نفوس قارئها ، وتدانى فى روحها وقوة تأثيرها أسلوب الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى خطبه الحماسية المنشورة فى (نهج البلاغة) ، ولا غرو فالسيد جمال الدين هو قبس من نور العترة الحسينية العلوية ، فكأن روح الامام على تمثلت فيه ، وتجلى أثرها فيما يكتبه أو يمليه ٠

هى رد فعل للاحتلال

ذكر الأمير شكيب أرسلان أنه سمع الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده يقول : « ان الأفكار فى العروة الوثقى كلها للسيد ليس لى فيها فكرة واحدة ٠ والعبارة كلها لى ليس للسيد فيها كلمة واحـــدة » ٠

وقد جمع الأستاذ عبد القـــادر المغربى أحد تلاميذ الحكيم الأفغانى النسخ الأصلية لما ظهر من جريدة (العروة الوثقى) فكانت ثمانية عشر عددا وذكر ان هذه صورة ما كان مكتوبا على رأس كل عدد منها :

العروة الوثقى

لا انفصام لها

جريدة سياسية أدبية تصدر يوم الخميس

مدير السياسة	المحرر الأول
جمال الدين الحسينى الأفغانى	الشيخ محمد عبده

ترسل الجريدة الى جميع الجهات الشرقية
قد عينت أجرة البريد خمسة فرنكات
فى السنة لمن تسمح بها نفسه (١)
من شـــاء أن يبعث الينا بتحارير
أو رسائل فى أى موضوع كان رغبة
نشره فى الجريدة أو التنبيه على أمر
مهم فليرسلها الى ادارة الجريدة
بهذا العنوان :

6 Rue Hartel, à Paris

وقد صدر من الجريدة ثمانية عشر عددا . ظهر العدد الأول منها فى يوم الخميس ١٥ جمـــادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ .

أى قبل أن ينقضى عامان على الاحتلال البريطانى .. ولقد كانت وقائع الثورة العرابية . والمؤامرات التى دبرتها السياسة الانجليزية لاحباطها . واحتلال انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ . وتغلغل النفوذ البريطانى فى شئون الحكومة كافة . ومحاربة الانجليز للروح الوطنية فى مصر . كل ذلك كان له أثره فى ظهور جريدة العروة الوثقى . بحيث يصح القول بأن صدورها كان رد فعل للاحتلال الأجنبى . وثورة عليه . وكانت كتاباتها دعوة صادقة للجهاد ضد الاستعمار . موجهة الى الأمة المصرية والى الشرقيين كافة . لأنهم جميعا هدف للمطامع الاستعمارية .

---

(١) جمال الدين الأفغانى ــ ذكريات وأحاديث ــ لعبد القادر المغربى ص ١٥ .

فاتحة العدد الأول

وفيما يلى فاتحة العدد الأول من جريدة (العروة الوثقى) ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير » ٠ هذا ما تمده العناية الالهية من قول الحق ، متعلقا بأحوال الشرق ، وعلى الله المتكل ، فى نجاح العمل ٠

« خفيت مذاهب الطامعين ازمانا ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت ، أوغل الأقوياء من الأمم فى سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر ، وسحروا ألبابهم حتى أذهلوهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام ، وبلغوا بهم من الضيم حدا لا تحتمله النفوس البشرية ٠

« ذهب أقوام الى ما يسوله الوهم ، ويغرى به شيطان الخيال، فظنوا أن القوة الآلية وان قل عمالها ، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وان اتفقت آحادها ، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير ، فى النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان ، فان تقلبات الحوادث فى الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه ان ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت فى سواد أمة عظيمة ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها ، فلم يجز فى زمن من الأزمان امحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها فى العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة ، وان بلغت القوة أقصى ما يمثله الخيال ٠

« والذى يحكم به العقل الصريح ، ويشهد به سير الاجتماع الانسانى من يوم علم تاريخه الى اليوم ، أن الأمم الكبيرة اذا عراها ضعف لافتراق فى الكلمة ، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد ، أو ركون الى راحة لا تدوم ، أو افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها قوة أجنبية ، أزعجتها ونبهتها بعض التنبيه ، فاذا توالت عليها وخزات الحوادث وأقلقتها آلامها ، فزعت الى استبقاء الموجود ، ورد المفقود، ولم تجد بدا من طلب النجاة من أى سبيل ، وعند ذلك تحس بقوتها

الحقيقية . وهى ما تكون بالتئام أفرادها ، والتحام آحادها ، وأن الالهام الالهى والاحساس الفطرى والتعليم الشرعى ، ترشدها الى أن لا حاجة لها الى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شىء عليها .

« ان النفوس الانسانية وان بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت اذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم الا الى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الامكان ، فاذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس الى قواها ، واستأسد ذئبها ، وتنمر ثعلبها ، والتمست خلاصها ، ولن تعدم عند الطلب رشادا .

« ربما تخطىء مرة . فتكون عليها الدائرة ، لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراس من الوقوع فى مثله ، فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة . وان الحركة التى تبعث لدفع ما لا يطاق اذا قام بتدبيرها قيم عليها ومدبر لسيرها ، لا يكفى فى توقيف سريانها أو محو آثارها قهر ذاك القيم واهلاك ذاك المدبر ، فان العلة مادامت موجودة لاتزال آثارها تصدر عنها، فان ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة ، نعم يمكن تخفيف الأثر أو ازالة علته ورفع أسبابه .

« جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها فى الأخلاق والعادات والمشارب ، وان لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها ، فكيف بها اذا حملها مالا طاقة لها به ، لاريب أنها تستنكره ، وان كانت تستكبره ، وكلما أنكرته بعدت عن الميل اليه ، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريبا . تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب .

« ان مجاوزة الحد فى تعميم الاعتداء تنسى الأمم ما بينها من الاختلاف فى الجنسية والمشرب ، فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ، الزم من التحزب للجنس والمذهب ، وفى هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية الى الاتفاق أشد من دعوتها اليه للاشتراك فى طلب المنفعة .

« أبعد هذا يأخذنا العجب اذا أحسسنا بحركة فكرية فى أغلب أنحاء المشرق فى هذه الأيام ؟ كل يطلب خلاصا ويبتغى نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والأسباب ما يصل اليه فكره على درجته من الجودة والأفن (١) ، وان العقلاء فى كثير من أصقاعه يتفكرون فى جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل .

« بلى ، كان هذا أمرا ينتظره المستبصر وان عمى عنه الطامع ، وليس فى الامكان اقناع الطامعين بالبرهان ، ولكن ما يأتى به الزمان من عاداته فى أنبائه بل ما يجرى به القضاء الالهى من سنة الله فى خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون .

« بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته ، خصوصا فى المسلمين ، فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جورا ، وذوو حقوق فى الامرة حرموا حقوقهم ظلما ، وأعزاء باتوا أذلاء ، وأجلاء أصبحوا حقراء ، وأغنياء أمسوا فقراء ، وأصحاء أضحوا سقاما ، وأسود تحولت أنعاما ، ولم تبق طبقة من الطبقات الا وقد مسها الضر من افراط الطامعين فى أطماعهم ، خصوصا من جراء هذه الحوادث التى بذرت بذورها فى الأراضى المصرية من نحو خمس سنوات بأيدى ذوى المطامع فيها .

« حملوا الى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها ، وشدوا عليها بما لاتألفه فحارت ألبابها ، وألزموها ماليس فى قدرتها فاستعصت عليه قواها ، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع ، فكانت الحركة العرابية العشواء ، فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين ، فاندفع بهم سيل المصاعب بل طوفان المصائب على تلك البلاد ، وظنوا بلوغ الأرب ، ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا .

« لم تكد تخمد تلك الحركة فى بادىء النظر حتى خلفتها حركة

---

(١) ضعف الرأى .

أخرى ، وفتح باب كان مسدودا ، وقام قائم بدعوة لها المكانة الأولى فى نفوس المسلمين ، بل هى بقية آمالهم ، ولا ندرى الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة ، وربما يوجد من يدرى أن مسببيها فى حيرة من تلافيها ، نعم انهم غرسوا غرسا الا أنهم سيجنون أوهم الآن يجنون منه حنظلا ، ويطعمون منه زقوما • لاجرم هذه هى العواقب التى لا محيص عنها لمن يغالى فى طمعه ، ويغلغل فى حرصه ، ولو أنهم تركوا الأمر من ذلك الوقت لأربابه ، وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به ، والقادرين عليه العـــارفين بطرق مدافعته ، أو اقتناء فائدته ، لحفظوا بذلك مصـــالحهم ، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنـــافع الوافرة ، بدون أن تزل لهم قدم أو ينكس لهم علم •

« غير أنهم ركبوا الشطط وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الأهواء • وهو أنفذ عواملهم وأقتلها ، وما علموا أنه وان كان ذريع انفتك الا أنه سريع العطب ، وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب الى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين ، فان بلاء الجور اذا حل بشطر من الأمة وعوفى منه باقيها ، كانت سلامة البعض تعزية للمصابين ، وحجاب غفلة للسالمين ، يحول بينهم وبين الاحساس بما أصاب اخوانهم ، أما اذا عم الضر ، فلا محالة يحيط بهم الضجر ، ويعز عليهم الصبر ، فيندفعون الى مافيه خيرهم ، ولا خير فيه لغيرهم •

« ان الحالة السيئة التى أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموما ، ان مصر تعتبر عندهم من الأراضى المقدسة ، ولها فى قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظرا لموقعها من الممالك الاسلامية ، ولأنها باب الحرمين الشريفين • فان كان هذا الباب أمينا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع، والا اضطربت أفكارهم وكانوا فى ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الاسلامية •

« ان الخطر الذى ألم بمصر نغرت له أحشاء المسلمين ، وتكلمت

به قلوبهم ، ولن تزال آلامه تستفزهم ما دام الجرح نغارا ، وما هذا بغريب على المسلمين ، فان رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة . ومادام القرآن يتلى بينهم وفى آياته مالا يذهب على أفهام قارئيه ، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم .

« ان الفجيعة بمصر حركت أشجانا كانت كامنة ، وجددت أحزانا لم تكن فى الحسبان ، وسرى الألم فى أرواح المسلمين سريان الاعتقاد فى مداركهم ، وهم من تذكار الماضى ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيرا ، بل نفيرا عاما ، بل يكون صاخة تخرق مسامع من أصمه الطمع .

« ان أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له فى فتوحاته الا المداهاة ، ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ، ولا أسنة يحفظ بها ما تمتد اليه يده الا المراضاة ، يظهر بصور مختلفة الألوان ، متقاربة الأشكال ، كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ، ومثبت مراكز الأمراء ومسكن الفتن ، ومخلص الحكومات من غوائل العصيان ، وواقى مصالح المغلوبين ، فكان أول ما يجب عليه ملاحظته فى سيره هذا أن لا يأتى من أعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذى يكفى لتمزيقه رجع البصر ، وكر النظر ، وأن يتماشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها اذا حنقت خنقت، وليس له أن يغتر بعدم مكنتهم، وهو يعلم أن الكلمة اذا اتحدت لا تعوزها الوسائط ، ولا يعدم المتحدون قويا شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته، وأن المغيظ لا يبالى فى الايقاع بمناوئه أسلم أو عطب ، فهو يضر ليضر ، وان مسه الضر .

« الا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين ، ووقرت أسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهند الى مكة ، ومن مكة الى مصر ، والكرير (١) الممتد من مصر الى مكة ومن مكة الى الهند ،

(١) الكرير صوت من الصدر كصوت المختنق .

وكلها تتلاقى بين تراقى المغرورين بقوتهم ، المسترسلين فى جفونهم .

« ان الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق جـــددت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمورهم ، مع ملاحظة العلل التى أدت بهم الى ما هم فيه ، فتقاربوا فى النظر ، وتواصلوا فى طلب الحق ، وعمدوا الى معالجة الحق وعلل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف ، وان فى الحــاضر منها لنهزة تغتنم ، واليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم ، ولئن فاتت فكم فى الغيب من مثلها ، والى الله عاقبة الأمور .

« تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل فى عدة أقطار . خصوصا البـــلاد الهندية والمصرية ، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ، ويوحدون كلمة الحق فى كل صقع ، لاينون فى السعى ، ولا يقصرون فى الجهـــد ، ولو أفضى بهم ذلك الى أقصى ما يشفق منه حى على حياته .

« ولما كانت بدايتهم تستدعى مساعدة من يضارعهم فى مثل حالهم ، رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم ، ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالى أوروبا ، وكتبوا على أنفسهم النظر فى أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها . وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ، ومناط اليقين ، وفيها موسم الحجيج العام فى كل عام ، يجتمع اليـــه الشرقى والغربى ، ويتآخى فى مواقعها الطاهرة الجليل والحقير ، والغنى والفقير ، كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات ، والله يهدى من يشاء الى سواء السبيل .

« ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر ، وأقرب الى الظفر ، يستدعى أن يكون للداعى فى كل قلب سليم نفثة حق ،

ودعوة صدق ، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم ، بين من خفى عنه شأنهم من اخوانهم ، واختاروا أن يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربى ، وأن تكون فى مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم ، وتوصيل أصواتهم الى الأقطار القاصية ، تنبيها للغافل ، وتذكيرا للذاهل، فرغبوا الى (السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى) أن ينشىء تلك الجريدة ، بحيث تتبع مشربهم ، وتذهب مذهبهم ، فلبى رغبتهم ، بل أدى حقا واجبا عليه لدينه ووطنه ، وكلف (الشيخ محمد عبده) أن يكون رئيس تحريرها ، فكان ما حمل الأول على الاجابة حمل الثانى على الامتثال ، وعلى الله الاتكال فى جميع الأحوال » .

احتوت المقالة كما ترى نداء قويا للأمم الشرقية أن يتحد أبناؤها لدرء الأخطار المحدقة بهم المهددة لكيانهم . وفيها دعوة للمواطنين فى كل أمة شرقية أن يتكتلوا وينبذوا الفرقة والانقسام. ويقاوموا الاستعمار بكل ما لديهم من حول وقوة . وثبات وايمان. وفيها استنكار للاحتلال البريطانى الذى نكبت به مصر سنة ١٨٨٢. واشادة بمركز مصر فى الشرق ودعوة صادقة لتحريرها من نير الاحتلال . وتحذير المصريين من أن يثقوا بوعود الانجليز الكاذبة .

منهج الجريدة

وفى العدد نفسه مقالة عن منهج الجريدة . جاء فيها :

« سنأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الامكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك مافات ، والاحتراس من غوائل ما هو آت .

« ويستتبع ذلك البحث فى أصول الأسباب ومناشىء العلل التى قصرت بهم الى جانب التفريط ، والبواعث التى دفعت بهم الى مهامه حيرة عميت فيها السبل ، واشتبهت بها المضارب ، وتارة

فيها الخريت (١) ، وضل المرشد ، حتى لا يدرى الســـالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة ، والمزعجات المدهشة ، والمدهشات القاتلة .

« وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ، ولبست عليهم مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين ، حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء أدوائهم ، وظنوا أن زمان التدارك قد فات ، وأن العلة بلغت حدها .

« وتحاول اشراب الأفهام أن لا حاجة فى الوصول الى نقطة الخلاص المرغوبة الى قطع دائرة عظيمة ، تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم . وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة انما عرض من الادبار عن المطلوب وهو تحت الجناح ، ويكفى فى الوصول اليه عطفة نظر ، وقطع بعض خطوات قصيرة .

« وان الظهور فى مظهر القوة لرفع الكوارث ، انما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهى ما تمسكت به أعز دولة أوروبية وأمنعها (٢) ولا ضرورة فى ايجاد المنعة الى اجتماع الوسائط ، وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولا ملجأ للشرقى فى بدايته ، أن يقف موقف الأوروبى فى نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك ، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا أعجزها وأعوزها .

« وتنبه على أن التكافؤ فى القوى الذاتية والمكتســـبة ، هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية . فان فقد التكافؤ لم تكن

---

(١) الخريت الدليل الحاذق الذى يهتــدى الى اخرات الارض اى مضايقها وطرقها الخفية .

(٢) يريد روسيا .

الروابط الا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف . وتجعل اهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة ، المدبج بأشكال المجاملة ، شفافا ينم عما وراءه ، وتنقب عن المسالك الدقيقة ، التى يسرى بها الطامعون فى دياجير الغفلات .

« وتهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصا من التهم الباطلة التى يوجهها اليهم من لا خبرة له بحالهم ، ولا وقوف على حقائق أمورهم ، وابطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون الى المدنية ماداموا على أصولهم التى فاز بها آباؤهم الأولون .

« ولا تهن فى تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون فى شئونهم ، مع اختيار الصادق، وانتقاء الثابت .

« وتراعى فى جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة فى أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها ، والسياسات القويمة التى لا تميل الى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين .

« ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين اليها ، والحاملين عليها ، لا تظهر اذا أدلجوا ، ولا تنجد اذا غوروا وتذهب مذاهب الرشد وتصيب بحول الله مواقعه عند من سبق فى أزلى علم الله هدايته . والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

« وترسل الى الذين نعرف أسماءهم مجانا بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير ، والغنى والفقير ، ومن لم يصل الينا اسمه فما عليه الا أن يكتب الى ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل اقامته على النهج الذى يريده والله الموفق » .

* * *

اتخذت العروة الوثقى شعارها ايقاظ الأمم الاسلامية ، والمدافعة عن حقوق الشرقيين كافة ، ودعوتهم الى مقاومة الاستعمار الأوروبى ، والجهاد فى سبيل الحرية والاستقلال .

منع العروة الوثقى
من دخول مصر والهند

وقد ذاع شأنها فى العالم الاسلامى ، وأقبل عليها الناس فى مختلف الأقطار ، ولكن الحكومة الانجليزية أقفلت دونها أبواب مصر والهند ، وشددت فى مطاردتها واضطهاد من يقرؤها ، بل كانت تتوجس منها خيفة وتعد العدة لمصادرتها قبل ظهورها .

وفى ذلك تقول فى عددها الخامس الصـــادر بتـــاريخ ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ ـ ١٠ ابريل سنة ١٨٨٤ .

« لو نادينا الغافلين أن انتبهوا . والنائمين أن استيقظوا . واللاهين بحظوظهم أو أمانيهم وأوهامهم أن التفتوا . ولو أنذرنا أهل مصر بأن الانكليز لو ثبتت أقدامهم فى ديارهم لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم وخطرات قلوبهم . بل على استعداد عقولهم لما عساه يخطر ببالهم . لقال الناس اننا نبالغ فى الانذار ونغرق فى التحذير . ولو بينا لهم أن الانجليز يؤاخذون الأبناء بذنوب الآباء . والأحفاد بجرائم الأجداد . ويطالبون الذرارى بدفائن أسلافهم . وان لم يكن للخلف علم بما ترك السلف . لعدوا هذا البيان منا شططا فى المقال وميلا عن الاعتدال ... » الى أن قالت الجريدة : « فلا نذكر ولا نبين . ولا نحكى ولا نقص . ولكن نعرض عليهم نموذجا من المعاملة لعله يكون للمتبصرين مرآة تحكى ما يغيب عنهم من لوازم السلطة الانكليزية . عزمنا على انشاء جريدتنا هذه . فلما وقف على الخبر محررو الجرائد الانكليزية المهمـــة أخذتهم الحدة . واحتدمت فيهم نار الحمية ، وأنذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة فى سياسة الانكليز ونفوذها فى البلاد الشرقية . ولجوا فى اغرائها بها . وألحوا عليها أن تعـــد كل وسيلة لمنع الجريدة من الدخول فى البلاد الهندية والبلاد المصرية . كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنـــا .

الى أن قالت : « ولكن فلتعلم الحكومة الانجليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا فى البلاد الشرقية سواء كان بهذه الجريدة أو بوسيلة أخرى اذا دعا الحال · فان أنصار الحق كثيرون » ·

ولم تطق بريطانيا صبرا على جريدة العروة الوثقى وعملت على منع دخولها فى مصر والهند · فأوعزت الى الحكومة المصرية بمصادرتها وتغريم كل من توجد عنده من خمسة جنيهات الى خمسة وعشرين جنيها · قالت الجريدة فى هذا الصدد فى عددها التاسع الصادر فى ٢٥ رجب سنة ١٣٠٢ (٢٢ مايو سنة ١٨٨٤) مايلى :

« انعقد مجلس النظار المصرى فى القاهرة (١) واهتم بالبحث فى شأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره الى نظارة الداخلية المصرية قاضيا عليها بأن تشتد فى منع هذه الجريدة عن دخول الأقطار المصرية ، وتراقب جولاتها فى تلك الديار ، فصدر أمر الداخلية الى ادارة (عموم البوسطة) يلزمها الدقة فى ذلك ، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغا من خمسة جنيهات مصرية الى خمسة وعشرين جنيها (وهى غرامة جسيمة ربما دعا اليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الانكليز فى مصر) (٢) .

« أما نحن فلا نظن أحدا من النظار المصريين له رأى اختيارى فى هذا القرار ، بل لا نتوهم فى المستوى على كرسى الخديوية ميلا الى مثل هذا الحكم ، ولا يختلج فى صدورنا أن مصريا من أى مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم ، بل ولا شرقيا ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه جانبا من العدل ·

« هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم ، ولها سعى بل كل السعى لخيبة آمال أعدائهم ، ولا ترى من مشربها

---

(١) كانت الوزارة برياسة نوبار ·

(٢) كما جاء فى (العروة الوثقى) عدد ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤ ·

مدح زيد ولا القدح فى عمرو ، فان المقصد أعلى وأرفع من هذا ، وانما عملها سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموما على الصفاء والوداد . تلتمس من أبنـــاء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التى فغرت أفواهها لالتهامهم . ومن رأيها أن الاشتغال بداخل البيت انما يكون بعد الأمن من طروق الناهب .

« هذا منهاج (العروة الوثقى) علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها الى الآن . فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقيا مسلما أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره . ولكنا نعلم أن حركات الآمرين فى القطر المصرى هذه الأيام قهرية لا يخالطها شيء من الاختيار ، والمدير لرحى القهر عليهم هم عمال الانجليز .

« ولا نريد أن نقول للانكليز انهم ظلموا فى هذا الحكم فان الجريدة لم يوجد فيها الى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والأجنبية من كشف مساتيرهم ، وبيان الرزايا التى أصيبت بها الديار المصرية من حلولهم (١) . لأنهم الانكليز الذين اذا أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين فى الهند واقبال الناس عليه بالاعتبار أسرعوا بجلبه الى ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصوله اليها يفتح له الضابط مصحف قرآن أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ثم يشير الى آية من آيات الجهاد أو حديث مما يدعو اليه ، ويسأله : هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث ؟ فاذا قال نعم . قال له فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا . فاذا أجابه بأننى درويش ملازم العزلة عن الناس وليس اعتقادى بهذا الا لأنه كتاب دينى ، ضرب له الضابط أجل أربعة أيام أو أقل يبين فيها رأيه فى الآية أو الحديث ، فان مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه ، ولم يبدل عقيدته ، ولم يبادر بارسال تحريفه وتبديله وخروجه عن

---

(١) الحلول بمعنى الاحتلال .

دينه الى مطبعة من المطابع ليطبع وينشر ـ بعثت به الحكومة الى جزيرة (أندومان) (١) نفيا مؤبدا . ولو رأيت الجزيرة لرأيتها غاصة بأمثال هؤلاء المظلومين .

« فدولة الانكليز التى تحاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم ، وما يمكن أن يهجس من حديث نفوسهم ، لا ريب أنها تعد وجود لفظ الاسلام فى جريدة كافيا لمنعها عن الدخول الى بلاد لها فيها قدم ثابت ، أو تسعى فى تثبيته ، بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصا علق عليه هـــذا الاسم من أى جنس كان ، فلا غرابة فى صدور مثل هذا الجور منها ، غير أننا نعلن لها أن همم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم ، وليس يعجزنا ادخال هذه الجريدة فى كل بقعة تحوطها السلطة الانجليزية الظالمة ، وذلك بعزائم أولى العزم الذين قاموا بانشاء العروة الوثقى .

« بلغنا أن بعضا من الناس يسل سيفه ويشحذ سنانه لمناضلة الولى الحميم ، ويقابل ثناءه بالذم ، ومدحه بالقدح ، واحسانه بالاساءة ، ويواجه نصيحته بالظنة . ولا نظن أن هـــذا منه عن عمد ولا اغراء عـــدو ، وانما هـــو لشبهة حجبت نظره عن ادراك الحقيقة . فاذا كشفت له الأيام عن الواقع رجع الى الندم على ما صدر منه ، وكانت له مثابة الى الحق وركون الى الصواب .

« لا يحزنن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من منع (العروة الوثقى) عن دخول القطر المصرى وليعلموا أن الحكومة المصرية لا دخل لها فى هذا المنع ، فان حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شىء فيها سوى الدفاع عن الشرقيين ، وانما منشؤه حكومة انجلترا وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها » .

---

(١) جزيرة بالمحيط الهندى .

تقصد الشرقيين عامة
لا المسلمين وحدهم

وكانت دعوة (العروة الوثقى) موجهـــة الى الشرقيين عامة لا المسلمين وحدهم . وفى ذلك يقول جمال الدين فى عدد ١٨ رجب سنة ١٣٠١ هـ (١٥ مايو سنة ١٨٨٤) : « لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما يخيل اليه ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا من تطاول الأجانب عليهم والافساد فى بلادهم . وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب فى الأقطار التى غدر بها الأجنبيون وأذلوا أهلها أجمعين واستأثروا بجميع خيراتها » .

الفصل الخامس

نماذج
من مقالات العروة الوثقى وأخبارها

نقتطف فيما يلى نماذج من المقالات والأخبار المنشورة بجريدة (العروة الوثقى) وسنضع عناوين وهوامش لبعض هذه المقتطفات تيسيرا للتعريف بموضوعاتها وملابساتها •

الاستعمار فى مصر

فى العدد الأول الصادر فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ (٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١) مقالة تحت عنوان (مصر) حملت فيها على سياسة بريطانيا الاستعمارية فى وادى النيل • ووصفت البؤس الذى عانته البلاد من الاحتلال وقالت ضمن ما قالت :

« تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة وعمت بقاعها ففاض خيرها على ما يجاورها من الأقطار الشرقية بل وصل مد نيلها الى أراضى البلاد الغربية وتوارد اليها الغرباء وقصاد الكسب من كل مكان وما خاب لها قاصد ولا أخفق فيها سعى ساع فأثرى فى مغانيها الفقراء وعز بها الأذلاء وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين ومحط رحال الراجين من الشرقيين • وكل وافد اليها يجد أهلا خيرا من أهله وسكنا خيرا من سكنه • وتكاثرت فيها العناصر الغريبة حتى كان الداخل اليها يخيل له أنه تحت برج بابل يوم تبلبلت الألسن •

« وساد بها الأمن وعمت الراحة وضارعت فى كل أحوالها نوع ما عليه الممالك الأوروبية العظيمة ، وكأن المتأمل فى سيرها هذا

يحكم حكما ربما لم يكن بعيدا من الواقع أن عاصمتها لابد أن تصير في وقت قريب أو بعيد كرسى مدنية لأعظم الممالك الشرقية بل كان ذلك أمرا مقررا فى أنفس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها. وهو أملهم الفرد كلما ألم خطب أو عرض خطر . غير أن الأيام كأنها حسدتها على ما منحته . فعثر العاقل وفرط المالك وأعثر المعجب وتهور الغبى.وخار الأفين (١) . فتقرب البعيد وبعد القريب. ونزل بمصر مالم يكن له أثر الا فى حواشى طوامير (٢) الأوهام ولا حول ولا قوة الا بالله .

« ألحمت ادارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها ، وانتقضت منها أصول على وجه غير مألوف . ففتحت للدسائس أبواب وانساب بين طبقات الناس دهاة سياسة وطلاب غايات فتفرق اتصال وتقطعت أوصال فضعفت السلطة الوازعة ونبذت الطاعة والتهبت نيران الفتن .

« قضاء حل بتلك البلاد فاحتاجت فى اعادة شأنها الأول الى رأى قويم وعزم ثابت ووازع قوى تدين لسطوته النفوس وان من ذوى الحقوق فيها من يجمع هذه الأوصاف وله من القلوب المكانة العليا . وكان يسهل عليه القيام بما يعهد اليه لكن تحكم طمع وأخطأ ظن فتخلفت النتيجة واشتدت الحاجة .

« أشفقت دولة الانكليز على طريق الهند كما يقال أو ظنت أن آن التقدم بعض خطوات قد آن . فرأت أن اعادة الأمن وتثبيت الراحة فى مصر من فرائض ذمتها . فكان التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والابعاد والتغريم وما شاكل ذلك مما لا حاجة لبيانه . وعم بعض أنواع الهون حتى لم يبق ممن يعرف اسمه أحد الا مسه ضرمه (٣) ما خلا أشخاصا قلائل، وهذه المرهبات على ما بها

---

(١) أفن أفنا : ضعف رأيه فهو أفين ومأفون .

(٢) الطومار : الصحيفة وجمعها طوامير .

(٣) الضرم : اللهب .

من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لاشرافه على الخطر من وجه آخر ولم تأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد •

« أليست المالية هى مرمى أنظار دول أوروبا وما وضع نظام فى البلاد ولا أحدث تغيير بمشورتهم الا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها من الحقوق الأوروبية • اليوم رزئت بالنقص فى الايراد وحملت من تعويضات متالف الحرب (١) أربعة ملايين من الجنيهات ورميت بنفقات جيش الحلول (٢) وحرب السودان ومصاريف اخلائه • وما يضاف الى كل هذا مما يظهره المستقبل• فاختلت الموازين وبطل قانون الجبايات وأى مصيبة على المالية أعظم من نوازلها الحاضرة •

« عقد العزم على الغاء الجيش الوطنى وهو قوة البلاد وبه فخارها وكأنه لم توجد وسيلة لتنظيم عسكر مصرى وقصر الجهد عن مجاراة محمد على وابراهيم اللذين دوخا كثيرا من الأقطار بجنود مصرية •

« واأسفا على حالة الأهالى بعد هذا . حكم من لا دافع لحكمه بطرد آلاف من الوطنيين الموظفين فى دوائر الحكومة وما منهم أحد الا ويتبعه عائلة وأولاد ولا قوت لهم الا من مرتب عائلهم وما مرن على عمل لكسب سوى ما نشأ فيه من خدمة الحكومة • ألم يحس هؤلاء ضر الفقر ألم يعضهم ناب الجوع ألم يهتك مستورهم ؟ ألم يضق ذرعهم ألم يصبحوا كساة بسرابيل الكآبة عراة من أكسية

---

(١) هى التعويضات التى ألزمت بها مصر عقب الاحتلال البريطانى بدعوى أنها مقابل الخسائر والأضرار التىلحقت بالجالياتالأجنبية فى حوادثسنة ١٨٨٢ وخاصة مذبحة الاسكندرية فى ١٠ يونيه سنة ١٨٨٢ وضرب الاسكندرية بقنابل الأسطول البريطانى فى « يوليه » من ذلك العام . ومع أن المسئول عن هذه الخسائر هو الحكومة البريطانية لأنها هى التى أحدثتها ، ووقعت فيها . فان مصر قد احتملت مواقبها وتعويضاتها الجسيمة . وقد بلغت أربعة ملايين وربع مليون جنيه .

(٢) جيش الاحتلال .

المسرة ؟ ان لم يكن كل هذا فقد كان جله وان صدى أنينهم يتلى في صفحات الجرائد الوطنية العربية والافرنجية وسيتبع السابقين منهم اللاحقون حتى لا يجد وطنى فى البلاد من المهن الا ما لا يليق بالانكليزى تعاطيه من سفاسف الأمور كما هو فى البلاد الهندية.

« اضطرب ميزان السلطة العـــامة لتعاكس قواها المختلفة فاشتبه الأمر على العمال وظنوا أن لا تبعة عليهم فيما يعملون فانطلق ما غل من أيديهم وحكمـــوا أهواءهم فى أداء وظائفهم فخبطوا وخلطوا . فعمت السجون بأعيان الرعية ورفعت أذناب الكرابيج لتشريح أبدانهم واستعملت آلات التعذيب وامتدت مخالب الجور لتجريدهم من بقايا أموالهم وثمرات كسبهم وحدث نوع من الحكم المطلق عزيز المثال بعث عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم ولبسوا شيعا وأذيق بعضهم بأس بعض وما الله بغافل عما يعمل الظالمون .

« غلقت أبواب العمل من وجوهه الرسمية فى الادارات وتعطلت أشغال المحاكم وشخصت الأبصار لعاقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمة . فاتسع نطاق الفوضى وارتفع حجاب المنعة وسرى التهاون الى الدوائر العليا وعاد الأمر لقوة الساعد وكثرة الأعوان فعاثت اللصوص وكثر قطع الطرق فى كل ناحية وارتفعت الأصـــوات بالشكوى منهم فى عموم الجرائد الوطنية . فوقفت حركة الأعمال العمومية . وبدت للناس شئون عدلت بهم عن ضرورات معاشهم. وامتنع المدينون من أداء ما عليهم لدائنيهم من التجار والربويين فقبض المقرضون أيديهم واحتكروا نقودهم لفقد ثقتهم واشفاقهم من الضياع على رءوس أموالهم وان أصيبوا بالحرمان من الربح وابتلوا بالخسارة فى رأس المال من قبيل آخر واشتدت الحاجة بالفلاحين الى ما يعوض عليهم ماشية الحراثة بعدما اغتالهـــا التيفوس والى ما يجددون أو يصلحون به آلاتهم الزراعية ويستعينون به على نجاحها حسب العادة التى ألفوها . فعميت عليهم السبل وضاقت بهم المسالك ولم يجدوا لسد حاجاتهم سبيلا . ففسدت

الزراعة وانتقصت ثمراتها وانحطت أسعار الحاصلات لارتباك الأحوال الى حد ما كان يسمع الا فى القصص وروايات القدماء . ومطالب الحكومة فى ضرائبها ورسومها على حالها الأول مع الاغذاذ فى اقتضائها . فعم العسر وأحاط الضنك وتقوضت آلاف من البيوت التجارية وأتربت أيدى ملايين من عمال الصناعة وأعدم المزارعون قاطبة الا نزر يسير من حفظة الكنوز أو المستأثرين بأموال الكافة نهبا وسلبا . باع الفلاح أثاث بيته وما أبقاه التيفوس من عاملة أرضه بعدما ذهبت الحاجة بحلى حرمه وبناته ليؤدى ما عليه لحكومته ولم ينل من غضاره ما يقوم بحفظ حياته وعاد الى الفطرة الأولى يقتات بأقوات البهائم ويسرح مسارح الحيوانات الا قليلا منهم الله يعلمهم .

« وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية والأخذ بالشبه وان ضعفت واتباع بواطل التهم وان بعدت أو استحالت حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه وبلغ منها مبلغه . فلا ترى مارا بطريق الا وهو يلتفت وراءه لينظر هل تعلق بأثوابه شرطى يقوده الى السجن أو يقتضى منه فدا . وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر فى كل خطوة عثرة وفى كل نهضة سقطة . وله من كل شاخص دهشة . ومن كل طارق لبابه غشية . أى شقاء ينتظره الحى فى حياته أشنع من هذا ؟

« هذا ما تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصرى . هذا بعض ما يضيق به الصدر وتنقبض له الأنفس مما رزئوا به بعدما تكفل أحباؤهم الأولون بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضى السابقة . هذه طلائع الاصلاح المبشر به من زمان بعيد على ألسنة رسله . أصبح الأهالى حيارى فى أمورهم تائهين عن رشادهم . لا يعلمون ماذا يحل بهم . يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الأوروبية تسميه ضيقا وعناء وتمنيهم بالانقاذ منه فيحنون اليه ويودون لو رجعوا اليه ويحسبونه غاية سعادتهم بعد هذه الحالة التى هم فيها .

« أبعد هذا يصح لمصرى أن يظن أن تلك الرزايا التى حلت بلاده من نحو عشرين شهرا • كانت مقدمة لاصـــلاحها وتنظيم شئونها • نعم يمكن أن يخطر بالبال أنها تمهيد لعمل صناعى فى الأراضى المصرية كتقويم طرقها واقامة جسورها وتكثير جداولها وتقوية مواد الخصب فيها حتى تعود بعد مدة جنة من جنات الدنيا أو روضة من رياض الآخرة • أما الأهالى فليسوا بموضع النظر فانهم ان هلكوا ورث الأرض بعدهم قوم آخرون •

« فان لم يكن هذا فليكن تمام الاصلاح الذى لا يمثله الخاطر فى وقتنا الحاضر ولا يكفى للبدء فيه سنون معدودة على قيـــاس الاصلاح المنتظر فى بلاد بنجاب (من الممالك الهندية) فان الدولة التى تولت اصلاح الشئون المصرية فى هذه الأيام دخلت بلاد بنجاب بهذه الحجة واستولت عليها من مدة أربعين سنة ولم تزل الى الآن حكومتها عسكرية ولم يشرع فيها بتنظيم مدنى • فلينتظر اخواننا المصريون فانا معهم من المنتظرين » •

انجلترا والمسألة المصرية

وفى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤ كتبت مقـــالة عن التواء السياسة البريطانية • ختمتها بأن الحل الوحيد للمسألة المصرية لا يكون الا على أيدى أهلها • قالت :

« ان المسألة المصرية صبغت فى انكلترا عدة صبغات من يوم نشأتها • وكلما عرضت على العقول فى لون خيل لها أنه أجود ما فى الدن • حتى اذا مضى عليه زمان خفى وأعقبه لون جديد وهى فى انتقالاتها هذه لا تزداد الا اشكالا ولا تزيد انكلترا فى انهائهـــا الا ارتباكا •

« كان يود مستر (غلادستون) (١) ان ينهج فى سياسته منهج سلفائه من الانجليز يحبو الى مقصده بالأناة والتؤدة ويلتوى فى مسيره الى معاطف متخالفة ويرى أن سلوك الجادة مما لا تقتضيه

(١) رئيس الوزراء البريطانية الذى وقع الاحتلال فى عهدها .

الحكمة ولا يسوغه الحذق حتى يبلغ الغاية ويقطع الخلال (الطريق بين الرمال) ولا يظهر له أثر يقتفى أو كان كما يزعمون أو كما يدعى ونادى به على عهـــد (بيكونسفيلد) من أنه لا يميل الى الفتوحات وهمه البعد بانكلترا عن المداخلات فى الأمور الأجنبية بالقوة الحربية • الا أن الحوادث المصرية ألجأته الى العدول عن مشربه والتطور بغير طوره • فتضاربت آراؤه وتردد فى أعماله وسار سيرة المتخبط ونشأ من طمعه فى السياسة توعر السبل على حكومته فى بلوغ ماتريد وحدث النزاع بينه وبين بقية الوزراء فيما يجب اتباعه من بعد • وهو الآن فى حيرة بين التمسك بمذهبه السياسى والاستقالة من المنصب وبين الانفلات منه والتعرض للوم العقلاء والسقوط من منزلته فى قلوب أحزابه . وهذه الحيرة مهدت لمعارضيه من الحزب المحافظ طريقا للسعى فى اسقاطه من مكانته السياسية واهباطه من كرسى الوزارة •

« الذى أباح لمستر (غلادستون) أن يركب غير طريقه ويتداخل فى مصر بقوة السلاح ما زعمه من احتياج تلك البلاد الى اقرار الراحة وتخليصها من خلل الفوضى • ومن انكلترا أن تتولى اغاثتها مما وقعت فيه فمد يده لوضع قواعد العدالة وتخليص الحكومة من الضعف واعادة الأمن الى البلاد • وكان يظن أن هذا المطلوب يتم بهدم طوابى اسكندرية والحلول فى ثكن القاهرة • فيكون قد كسب أجرا أو نال ملكا جديدا أو حفظ مصلحة مهمة بأعمال خفيفة ونفقات قليلة وكلمات غير طويلة . ولكن من الأسف لم يساعده التوفيق على نوال البغية •

« تتابعت الفتن وعلا لياقا (١) حتى لذعه فنبهه لما لم يخطر له على بال فاضطر لسوق العساكر ومداومة الحروب • ومع هـذا لم تؤيد الحكومة التى انتصر لها ولم يكف محمد أحمد (المهدى) عن دعوته ولم يهن عزم عثمان دفنة بهذه الصدمات المتتالية وأجمعت

---

(١) اللياق : شعلة النار •

الجرائد على انه نادى بالحرب الدينية وهو يجمع متفرقة العرب ليزيدها الى قبيلته ويهاجم الانكليز مرة ثالثة .

« فهذه المصاعب شوشت أفكار البرلمان وحركت الخواطر على الوزارة الغلادستونية وتخوف رئيس الوزراء من عواقب المداولات فى المسائل المصرية . فتأخر عن حضور الجلسات من مدة أيام وقام ناظر الجهادية مقامه في التعبير عن أفكار الوزارة . وفهم من بعض خطاباته أن فى نية الحكومة أن تحفظ الثغور المصرية بعساكرها وأن تحل فى شرقى السودان وأن تتولى ادارة الحكومة المصرية . فقامت الحجة بكلامه هذا لحزب المحافظين ووبخوا الحكومة على ضعفها السابق والتجائها للعدول عن سياستها فى هذه الأوقات ولم يكن من رأى غلادستون أن تصرح الحكومة بمقاصدها وتظهر مشروعها بوجه جلي . ووقع الخلاف بينه وبين ناظر الجهادية وكثير من أعضاء الوزارة على جملة مواضيع فى المسألة المصرية. وزاد الخلاف شدة ميل غلادستون لمراضاة الأيرلنديين وتجافى بقية الوزراء عن رغبته . وثبت الرئيس فى آرائه وهو يفضل الاستعفاء على التساهل فى شيء منها . ومن هذا غلب على الظن أنه سيحصل انقلاب فى الوزارة أو فض البرلمان وأكدت قرب ذلك جريدة التيمس وجريدة الديلى نيوز وهى نصف رسمية وجاءت الأخبار الأخيرة متفقة على أن وزارة غلادستون فى خطر .

« فاذا انقلبت الوزارة الانكليزية وخلفتها أخرى من أى حزب كان فما عساها تفعل لحل المسألة المصرية والتخلص من الورطة ؟ أقبل الصيف وصعب على عســــاكر الانكليز أن تأتى بحركات عسكرية فى أطراف السودان الشرقية مدة أشهر . ويتعذر حفظ المواصلة بين سواكن وبربر والخرطوم . فان طلبوا عساكر هندية كما أنبأ به التلغراف انكشف للهنديين بتكرر طلب العساكر من الهند ضعف القوة البريطانية واجترؤا على حامية الهند وهناك الهول الأكبر . فى هذه المدة وهى غير قصيرة يتيسر لمحمد أحمد (المهدى) ودعاته أن يجمعوا قواهم وينالوا من المنعة ما يتعسر

على عساكر الهند مقاومته بل هم الآن على القرب مما نقول • ففى الأخبار الصحيحة أن حالة النيل الأعلى لا ترضى الحكومة الانكليزية• والبلاد المجاورة للخرطوم فى ثوران شديد وقد انقطع الأمل من فتح الطريق بين بربر وعاصمة النوبة ومحمد أحمد مهتم من نحو شهر بجمع قوة عظيمة يساعده على تنظيمها ضباط من أركان الحرب فيهم اثنا عشر أوروبيا وستون ضابطا مصريا فجوا من عساكر (هكس)(١) • ذكرت جميع ذلك جريدة الديلى نيوز واعترف مستشار خارجية انكلترا أن المواصلة بين شندى والخرطوم منقطعة ولم يصله خبر عن جوردون من حادى عشر هذا الشهر (مارس سنة ١٨٨٤) فاذا ترك هذا الخطب الجلل للقوة الانكليزية فلا نظنه الا يصدع جدار الهند ويذهب بكل ما يعبر عنه بالمصالح الأوروبية فى مصر (ولكن كذلك) •

« ولا نظن أن دول أوروبا تسمح بضياع مصالحها فى الأقطار المصرية خصوصا بعض الدول التى كانت تسابق انكلترا فى وادى النيل وانحط مقامها فيه بالتدخل الانكليزى الذى ليست له حدود معروفة ولا غايات معلومة • والى هذا تشير جريدة (الطان) الفرنساوية الوزارية حيث تقول : ان انكلترا لا يمكنها أن تضع مصر تحت حمايتها حتى تناقش الحساب بين يدى أوروبا وتنوه به جريدة (سان بطرسبورج) حيث تقول أن روسيا ليس فى عزمها أن تفتتح بعمل فى مصر فان انكلترا اعترفت فى جميع الأوقات بأن المسائل المصرية لها هيئة دولية وبناء على هذا لا يمكن القطع فى شيء منها الا باتفاق أوروبا •

« هذا اذا تمكنت انكلترا أن تأخذ على نفسها اطفاء الفتن واجهاد الثورات واستطاعت القيام بما تكتب على ذاتها • ففى نهايته تطالب عند أوروبا بما تقتضيه مصلحة كل دولة منها • فان عجزت كما هو الغالب على الظن أو طال عليها الزمان وهى بين ظفر وانهزام

(١) الجنرال هكس قائد انجليزى كان يقود جيشا من المصريين هزم فى موقعة ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٢ أمام قوات المهدى •

ولا تتجاوز فى حركاتها العسكرية شواطىء البحر فلا ريب أن القلق يستفز الدول لطلب وسائل أخرى سوى ما تهيئه دولة انكلترا . وانا نرى وسيحكم الزمان لنا ان شاء الله أن حفظ حقوق الأوروبيين وضبط البلاد المصرية واخماد نيران الفتنة فيها لا يتم الا على أيدى أهلها . ويفعل الله ما يشاء » .

عبث الانجليز بالأمن فى مصر
وقالت أيضا فى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤ :

« انا لله وانا اليه راجعون لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم. ورد تلغراف من القاهرة الى جريدة (استاندر) يفيد أن السجون ضاقت بالمسجونين حتى اضطرت الحكومة (المصرية أو الانكليزية) الى اطلاق ألف ومائتين منهم من أرباب الجنايات الخفيفة . وسبب هذه البلية عدم قدرة المجالس على محاكمة جميع المتهمين . لهـذا تذوب المقل بكاء وتفتت الأكباد حزنا (١) » .

ماضى الأمة وحاضرها
وعلاج عللها

وفى عدد ٢٧ مارس سنة ١٨٨٤ . نشرت مقالة عنوانها (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) . أوضحت فيها ان علاج أمراض الأمة مسألة تشعبت فيها الآراء .

(١) فى مارس سنة ١٨٨٤ استقال محمد ثابت باشا وزير الداخلية فى وزارة نوبار احتجاجا على تعيين المستر كليفورد لويد Clifford Llooyd وكيلا لوزارة الداخلية وتدخله المستمر فى شئون الوزارة . فقبلت استقالته وتولى نوبار نفسه وزارة الداخلية . وظل كليفورد لويد يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة من شئونها . ومن أمثلة تدخله أنه فى شهر مارس سنة ١٨٨٤ أصدر أمره بالافراج عن عدد كبير من السجناء فى السجون المختلفة بالمديريات كانوا تحت المحاكمة وكثير منهم من كبار الأشقياء وتعللت الوزارة بأن السجون ضاقت بالمسجونين . وكثرت حوادث السطو والسرقات والقتل . والى هذه الواقعة أشارت جريدة العروة الوثقى فى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤ السالف الذكر .

فمن قائل ان الجرائد علاج ناجع فى اصلاح شئونها · وأظهرت الشك فى كفاية الصحف لهذه المهمة . وكيف أن كثيرا من المتعلمين اتجهوا الى محاكاة الغربيين فى أساليب الحياة فازدادت تبعية البلاد للمصنوعات الأجنبية . وانتهت المقالة الى أن الواجب على الأمم الشرقية ان تتبع أصول دينها · ففى اتباعها ما يعيد اليها المجد والمنعة ويرقى باخلاقها وينهض بحضارتها ويوحد صفوفها · قالت:

« أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئا مذكورا ، ثم انشق عنها بماء العدم ، فاذا هى بحمية كل واحد منها كون بديع النظام ، قوى الأركان ، شديد البنيان · عليها سياج من شدة البأس ، ويحيطها سور من منعة الهمم ، تخمد فى ساحاتها عاصفات النوازل ، وتنحل بأيدى مديريها عقد المشاكل ، نمت فيها أفنان العزة . بعد ما نبتت أصولها ، ورسخت جذورها ، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والدانى اليها ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الكلمة ، وكملت القوة ، فاستغلت آدابها على الآداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها ، وأحست مشاعر سواها من الأمم بأن لاسعادة الا فى انتهاج منهجها ، وورود شريعتها ، وصارت وهى قليلة العدد كثيرة الساحات ، كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل ·

« وبعد هذا كله وهى بناؤها ، وانتثر منظومها ، وتفرقت فيها الأهواء ، وانشقت العصا ، وتبدد ما كان مجتمعا ، وانحل ما كان منعقدا ، وانفصمت عرى التعاون ، وانقطعت روابط التعاضد ، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ، ودار كل فى محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه · لا يلمح فى مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية ، وهو فى غيبة عن أن ضروريات حاجاته لا تنال الا على أيدى الملتحمين معه بلحمة الأمة ، وأنه أحوج الى شد عضدهم من تقوية ساعده ، والى توفير خيرهم من تنمية رزقه ، وكأنه بهذه الغيبة فى سبات يخيله الناظر اليه صحوا ، وذبول يظنه المغرور زهوا ، وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبادها،

وحدثت فيهم قناعة البهم ، والرضا بكل حال ، ولئن تنبه خاطر للحق فى خيال أحدهم ، أو استفزه داع من قلبه الى ما يكسب ملته شرفا ، أو يعيد لها مجدا ، عده هوسا وهذيانا . أصيب به من ضعف فى المزاج ، أو خلل فى البنية ، أو حسب أنه لو أجاب داعى الذمة لعاد عليه بالوبال ، وأورده موارد الهلكة ، أو لصار من أقرب الأسباب لزاول نعمته ، ونكد معيشته ، ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالا من اليأس ، فتغل يداه عن العمل ، وتقف قدماه عن السعى ، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه ، ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبله ، وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا ، وقيما على ما أورثوه لأعقابهم ، ويبلغ هذا المرض من الأمة حدا يشرف بها على الهلاك ، ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد ، وطعمة لكل طاعم .

« نعم رأيت كثيرا من الأمم لم تكن ثم كانت ، وارتفعت ثم انحطت ، وقويت ثم ضعفت ، وعزت ثم ذلت ، وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة دواء ؟ بلى .

وا أسفا ما أصعب الداء ، وما أعز الدواء ، وما أقل العارفين بطرق العلاج ! .

« كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقهـــا ، وهى لم تفترق الا لأن كلا عكف على شأنه ؟ أستغفر الله ، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالا به ، ولكنه صرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه ، نعم ربما التفت الى كل ماهو فى فطرة كل حى من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه ، وهو لا يدرى من أى وجه يحصلها ، ولا بأية طريقة يكون فى أمن عليها ؟ كيف تبعث الهمم بعد موتها ، وما ماتت الا بعد ما سكنت زمانا غير قصير الى ما ليس من معاليها ؟ هل من السهل رد التائه الى الصراط المستقيم ؟ وهو يعتقد أن الفوز فى سلوك سواه ، خصوصا بعدما استدبر المقصد ، وفى كل خطوة يظن أنه على مقربة من

الحظوة ؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق فى منامه ، المبتهج بأحلامه، وفى أذنه وقر وفى ملامسه خدر ؟ •

« هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها ، وتتناءى أطرافها ، وتتباين عاداتها وطبائعها ؟ هل من نبأة تجمع أهواءها المتفرقة ، وتوحد آراءها المتخالفة ، بعد ما تراسم جهل وران غين ، وخيل للعقول أن كل قريب بعيد ، وكل سهل وعر ؟ أيم الله انه لشىء عسير يعيا فى علاجه النطاسى ، ويحار فيه الحكيم البصير • هل يمكن تعيين الدواء الا بعد الوقوف على أصل الداء . وأسبابه الأولى والعوارض التى طرأت عليه ؟ ان كان المرض فى أمة فكيف الوصول الى علله وأسبابه الا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الأحوال وتنوع الأطوار ؟ أيمكن لطبيب يعالج شخصا بعينه أن يختار له نوعا من العلاج قبل أن يعرف ما عرض له من قبل فى حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض ؟ والا فان كثيرا من الأمراض تتولد جراثيمها فى طور من أطوار العمر ، ثم لا تظهر الا فى طور آخر ، لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها •

«كلا ، انه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنو عمره محدودة ، وعوارض حياته محصورة ، فكيف بمن يريد مداواة علة طويلة الأجل وافرة العدد ؟ لهذا يندر فى أجيال وجود بعض رجال يقومون باحياء أمة أو ارجاع شرفها ومجدها اليها ، وان كان المتشبهون بهم كثيرين • وكما أن المتطبب القاصر فى الأمراض البدنية لا يزيد علاجه المرض الا شدة ، لولا مساعدة الاتفاق والصدفة ، بل ربما يفضى بالمريض الى الموت - كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ، ووجوه العلة فيها وأنواعها ، وما يكتنف ذلك من العادات ، وما يوجد فى أفرادها من المذاهب والاعتقادات، وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الأرض ، ومكانتها الأولى من الرفعة ، ودرجتها الحالية من الضعة ، وتدرجها فيما بين

المنزلتين • فان أخطأ طالب اصلاحها فى اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء ، والوجود فناء ، فمن له حظ من الكمال الانسانى ، ولم يطمس من قلبه موضع الالهام الالهى ، لا يجرؤ على القيام بما يسمونه تربية الأمم واصلاح ما فسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصور فى أداء هذا الأمر العظيم علما أو عملا • نعم يكون ذلك من محبى الفخفخة الباطلة ، وطلاب العيش فى ظل وظائف ليسوا من حقوقها فى شيء •

« ظن القوم فى هذه الأزمان أن أمراض الأمم تعـــالج بنشر الجرائد ، وأنها تكفل انهاض الهمم ، وتنبيه الأفكار ، وتقويم الأخلاق • كيف يصدق هذا الظن وانا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون الا نجاح الأمم مع التنزه عن الأغراض ؟ فبعدما عم الذهول ، واستولت الدهشة على العقول ، وقل القارئون والكاتبون • لا نجد لها قارئا ، ولئن وجدت القارىء فقلما تجد الفاهم ، والفاهم قد يحمل ما يجده على غير ما يراد منه . بضيق فى التصور ، أو ميل مع الهوى ، فلا يكون منه الا سوء التأثير ، فيشبه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافا • على أن الهمة اذا كانت فى درك الهبوط • فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها . مع قصر المدة ، وتدفق سيول الحوادث ان هذا وحقك عزيز •

« ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبعثة فى أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها واخلادها الى ما دون رتبتهـــا بدرجات لا تحصر ، ورضاها بالدون من العيش ، والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا مشربها ، بل لمن كان خاضعا لسيادتها ، راضخا لأحكامها ، مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الأمراض القاتلة بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة فى كل بقعـــة من بقاعها ، وتكون على الطرز الجديد المعروف بأوروبا ، حتي تعم المعارف جميع الأفراد فى زمن قريب • ومتى عمت المعارف كملت الأخلاق ، واتحدت الكلمة ، واجتمعت القوة • وما أبعد ما يظنون؟

فان هذا العمل العظيم انما يقوم به سلطان قوى قاهر ، يحمل الأمة على ما تكره أزمانا حتى تذوق لذته وتجنى ثمرته ، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائبا عن سلطته فى تنفيذ ما أراد من خيرها، ويلزم له ثروة وافرة تفى بنفقـــات تلك المدارس وهى كثيرة . وموضوع كلامنا فى الضعف ودوائه ، فهل مع الضعف سلطة تقهر، وثروة تغنى ؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين .

« فان قالوا : يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات ، وافقناهم على الامكان لولا ما يكون من طمع الأقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلا لأن يستنشقوا نسيم القوة ، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر ؟ ...

على أنا لو فرضنا مسألة الدهر ، ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفى لبث تلك العلوم فى بعض الأفراد ، والاستزادة منها شيئا فشيئا ، فهل يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية، وأن ما يصيبه البعض منها يهيئه للكمال اللائق به ، ويمكنه من القيام بارشاد الباقى من أبناء أمته ؟ .

واعجبا كيف يكون هذا وان الأمة فى بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبـــة عنها !؟ وكيف بذرت بذورها ؟ وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأثمرت ؟ وبأى ماء سقيت ، وبأى تربة غذيت ؟ ولا وقوف لها على الغاية التى قصدت منهـــا فى مناشئها ، ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات ، وان وصل اليها طرف من ذلك ، فانما يكون ظاهرا من القول لا بناء على الحقيقة . فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بها، وسوقها الى أذهانهم المشحونة بغيرها ، يقوم من أفكارهم ، ويعدل من أخلاقهم ، ويهديهم طرق الرشاد فى افادة اخوانهم .

لعل الأقرب أن ناقلى تلك العلوم ــ وهم من أمة هذا شأنها مع ما ينعكس اليهم من الأوهام المألوفة فيها ، وما رسخ فى نفوسهم على عهد الصبا ، وما يعظمونه من أمر الأمة التى تلقوا عنها علومهم ــ يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها الا فسادا .

« ماذا يكون من أولئك الناشئين فى علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ، ولو صدقوا فى خدمة أوطانهم ؟ يكون منهم ما تعطيه حالهم ، يؤدون ما تعلموه كما سمعوه ، لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطباعها ، وما مرنت عليه من عاداتها ، فيستعملونه على غير وضعه ، ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه ، وغفلتهم عن آتيه ، يظنونه على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس ، والحياة لكل روح ، فيرومون من الصغير مالا يرام الا من الكبير ، وبالعكس ، غير ناظرين الا الى صور ما تعلموه ، ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم ، وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد ؟ أو يزيدها على مابها أضعافا ؟ وما هذا الا لكونهم ليسوا أربابها وانما هم لها نقلة وحملة .

« فهؤلاء الصادقون الا من وفق الله منهم بعناية الالهية يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لها غذاء ، فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها فى اللذة ، وسنه سن اللبان لا يقبل سواه ، فيسرع اليه المرض ، وينتهى به الى التلف ، فتكون منزلتهم من الأمة منزلة الآلة المحللة ، يشتتون بقية الجمع ، ويبددون أخريات الالتئام ان كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط . فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها ، وما قصدوا الا خيرا ان كانوا مخلصين ، ويوسعون بذلك الخصاص (١) حتى تعود أبوابا ، ويباعدون ما بين الضفاف ، حتى تصير ميادين لتداخل الأجانب تحت اسم النصحاء ، وعنوان المصلحين ، ويذهبون بأمتهم الى الفناء والاضمحلال وبئس المصير .

« شيد العثمانيون والمصريون عددا من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف منهم الى البلاد الغربية ليحملوا اليهم ما يحتاجون اليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب ، وكل

---

(١) الخصاص : الخلل أو الخرق فى الباب .

ما يسمونه تمدنا ، وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة ، وسير الاجتماع الانسانى • هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة ؟ هل نجوا بها من ورطـــات ما يلجئهم اليــــه الأجانب بتصرفاتهم ؟ هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور ؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الأعداء عليهم ؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف فى الأفكار حدا يميل عزائم الطامعين عنهم ؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية ، فهى تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها وان تجاوزت محيط الحياة الدنيا ، وان بادت فى سبيلها خلفها وارث على شاكلتها كما كان فى كثير من الأمم ؟ •

« نعم ربما يوجد بينهم أفراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء ، لا تعرف غايتها ، ولا تعلم بدايتها ، ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمات أخرى على حسب ما يختارون • ووقفوا عند هذا الحد، ومنهم آخرون عمدوا الى العمل بما وصل اليهم من العلم ، فقلبوا أوضاع المبانى والمساكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون ، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم ، وعرضوها معرض المباهاة ، فنفوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم ، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره ، فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم • وأهلكوا العاملين فى المهن لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة والكماليات الجديدة . لأن مصانعهم لم تتحول الى الطرز الجديد ، وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد ، وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة ، وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها ،

وما كان هذا الا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها .

« علمتنا التجارب ونطقت مواضى الحوادث بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منـــافذ وكوى لتطرق الأعداء اليها ، وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واحتقار من لم يكن على مثالهم ، شؤما على أبناء أمتهم ، يذلونهم ويحقرون أمرهم ، ويستهينون بجميع أعمالهم وان جلت ، وان بقى فى بعض رجال الأمة بقية الشمم ، أو نزوع الى معالى الهمم ، انصبوا عليه وأرغموا من أنفه ، حتى يمحى أثر الشهامة ، وتخمد حرارة الغيرة ، ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ، ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم .

« أقول ولا أخشى لوما : لو كان فى البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلب على بعض أراضيها الانكليز — لما بارحوها أبد الآبدين . فان نتيجة العلم عند هؤلاء ليست الا توطيد المسالك ، والركون الى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم ، فيبالغون فى تطمين النفوس وتسكين القلوب ، حتى يزيلوا الوحشة التى قد يصون بها الناس حقوقهم ، ويحفظون بها استقلالهم . ولهذا لو طرق الأجانب أرضا لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم، ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم . كأنما هم منهم ، ويعدون الغلبة الأجنبية فى بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم .

* * *

« فما الحيلة وما الوسيلة ، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها ، والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها ، والوقت ضيق والخطب شديد ؟ أى

جهورى من الأصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات ؟ أى قاصفة تزعج الطباع الجامدة ، وتحرك الأفكار الخامدة ؟ أى نفخة تبعث هذه الأرواح فى أجسادها ، وتحشرها الى مواقف صلاحها وفلاحها ؟ الأقطار فسيحة الجوانب ، بعيدة المناكب ، المواصلات عسرة بين الشرقى والغربى والجنوبى والشمالى ، الرءوس مطرقة الى ما تحت انقدم أو منفضة الى ما فوق السماء ، ليس للأبصار جولان الى الأمام والخلف واليمين والشمال ، ولا للأسماع اصغاء ، ولا للنفوس رغبات ، وللأهواء تحكم ، وللوساوس سلطان ·

ماذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير ؟ ماذا يحاولون والأخطار محدقة بهم بأى سبب يتمكنون ورسل المنايا على أبوابهم ؟ ·

لا أطيل عليك بحثا ولا أذهب بك فى مجالات بعيدة من البيان، ولكنى أستلفت نظرك الى سبب يجمع الأسباب ، ووسيلة تحيط بالوسائل : ارسل طرفك الى نشأة الأمة التى خملت بعد النباهة، وضعفت بعد القوة ، واسترقت بعد السيادة ، وخيمت بعد المنعة ، وتطلب أسباب نهوضها الأول ، حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل ، فقد يكون ما جمع كلمتها ، وأنهض همم آحادها ، ولحم ما بين أفرادها ، وصعد بها الى مكانة تشرف منها على رءوس الأمم ، وتسوسهم وهى فى مقامها بدقيق حكمتها ، انما هو دين قويم الأصول ، محكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة ، داع الى المحبة ، مزك للنفوس ، مطهر للقلوب من أدران الخسائس ، منور للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج اليه الانسان من مبانى الاجتماعات البشرية· وحافظ وجودها ، وينادى بمعتقديه الى جميع فروع المدنية .

« فان كانت هذه شرعتها ، ولها وردت ، وعنها صدرت · فما تراه من عارض خللها ، وهبوطها عن مكانتها ، انما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريا ، وحدوث بدع ليست منها فى شيء ، أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة ، وأعرضوا عما يرشد

اليه الدين وعما أتى لأجله ، وما أعدته الحكمة الالهية له ، حتى لم يبق منه الا أسماء تذكر ، وعبارات تقرأ . فتكون هذه المحدثات حجابا بين الأمة وبين الحق الذى نشعر بندائه أحيانا بين جوانحها.

فعلاجها الناجح انما يكون برجوعها الى قواعد دينها ، والأخذ بامكان على ما كان فى بدايته ، وارشاد العـــامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق ، وايقاد نيران الغيرة ، وجمع الكلمة ، وبيع الأرواح لشرف الأمة ، ولأن جرثومة الدين متأصلة فى النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة ، والقلوب مطمئنة اليه ، وفى زواياها نور خفى من محبته ، فلا يحتاج القائم باحياء الأمة الا الى نفخة واحدة يسرى نفثها فى جميع الأرواح لأقرب وقت . فاذا قاموا لشئونهم ، ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم ، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينها ، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانسانى ...

ومن طلب اصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه ، فقد ركب بها شططا ، وجعل النهاية بداية ، وانعكست التربية ، وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ، ولا يزيد الأمة الا نحسا ، ولا يكسبها الا تعسا .

« هل تعجب أيها القارىء من قولى ان الأصول الدينية الحقة، المبرأة عن محدثات البدع ، تنشىء للأمم قوة الاتحاد ، وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة ، وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف ، وتنتهى بها الى أقصى غاية فى المدنية !؟ ان عجبت فان عجبى من عجبك أشد !!

هل نسيت تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات ، واتيان الدنايا والمنكرات ، حتى اذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها ، ونور عقولها ، وقوم أخلاقها ، وسدد أحكامها . فسادت على العالم ، وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف . وبعد أن كانت عقول أبنائها فى غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها الى طلب الفنون

المتنوعة والتبحر فيها . ونقلوا الى بلادهم طب بقراط وجالينوس وهندسة اقليدس ، وهيئة بطليموس ، وحكمة أفلاطون وأرسطو، وما كانوا قبل الدين فى شيء من هذا ، وكل أمة سادت تحت هذا اللواء انما كانت قوتها ومدنيتها فى التمسك بأصول دينها .

« وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك ، وافتتاح الأقطار ، وطلب السيادة على الأمصار ، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم ، وارتفاع النفوس عن الدنايا . وبعد الغايات ، وعلو المقاصد هى التى هذبت أخلاقهم ، وقومت أفكارهم ، وكفتهم عن معاطاة الرذائل وخسائس الأمور وسوافلها . ثم بعد ما مضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها .

* * *

تجريد مصر من قوتها الحربية

وفى نفس العدد قالت ما يأتى تحت عنوان (مقاصد انكليزية فى مصر) :

« فى كل يوم تلح جريدة التيمس على حكومة انكلترا بوجوب طرد العساكر المصرية الوطنية زاعمة أنه يحل من الأهالى محل القبول ويسرون منه غاية السرور وتشير على الحكومة أيضا أن تجهر بحمايتها لمصر وتظهر للدول أنها تتحمل كل تبعة تحصل من مداخلتها فى تلك البلاد وأن ذلك من مقتضى الحزم فان الادارة المصرية وفروعها فى حاجة الى اصلاح حقيقى ولن يقوم به الا رجال الانكليز .

وهذا من تلك الجريدة وغيرها سوق للحكومة الى اظهار ما اكنته من السلطة على البلاد المصرية وضمها الى ممالكها الشرقية . وما كان ذلك خافيا على أحد وان كان بعض المصريين غالطوا فيه أنفسهم عن علم أو جهل والله أعلم .

« وما تطلبه الجرائد من طرد العساكر الوطنية انما هو مقدمة التملك ورسوخ القدم . ثم هى تموه فى تحسين ذلك بدعواها أن

أهالى مصر يفرحون منه . مع أن أول ثورة عسكرية سر بها المصريون على عهد وزارة ويلسون (١) انما كان منشأها العزم على تقليل عدد العساكر واقفال المدرسة العسكرية . فالمصريون وهم هم لا تعقل مسرتهم من طرد حاميتهم الوطنية بل ينزعجون منه غاية الانزعاج».

تخـــاذل الشرقيين
والدعوة الى الوحـــدة بينهم

وكتبت فى عدد ١٠ ابريل سنة ١٨٨٤ (١٤ جمادى الثانيـــة سنة ١٣٠١) تحت عنوان (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) مقالة أخذت فيها على المسلمين تخاذلهم وتفرقهم واغفالهم شئون اخوان لهم فى بلدان أخرى وعدم اكتراثهم لما يحل بهم ففقـــدوا التضامن بينهم ولم يعد ثمة تعاون بين رجال الدين والســـياسة فى مختلف الأقطار . وبينت أن تفرق الكلمة فى الدول الاسلامية أضعف من شأنها وجعلها هدفا لمطامع أعدائها . ودعت العلمـــاء فى جميع الأقطار الاسلامية الى توحيد كلمتهم وتوفيق الصلات ببينهم لدرء الأخطار عن أوطانهم .

« ان للمسلمين سترة فى دينهم ، وقوة فى ايمانهم ، وثباتا على يقينهم ، يباهون بها من عداهم من الملل ، وان فى عقيـــدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض ، ومما رسخ فى نفوسهم أن فى الايمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين . ومن حرم الايمان فقد حرم السعادتين ، ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء ، وهذه

---

(١) تقصد الوزارة المختلطة التى كان يرأســـها نوبار سنة ١٨٧٨ وكان فيها وزيران أجنبيـــان . أحـــدهما انجليزى وهـــو ريفرس ويلسن Revers Wilson ، والثـــانى فرنسى ، وهـــو دى بلينيير De Blignières . وقد ســـمتها (العروة الوثقى) وزارة ويلسن لأنه كانت له فيها الكلمة النافذة . للتحقير من شأن رئيســـها نوبار وتقصد بالثورة العســـكرية ثورة الضباط على هذه الوزارة سنة ١٨٧٩ وأدت الى اسقاطها .

الحالة كما هى فى علمائهم متمكنة فى عامتهم ، حتى لو سـمع أى شخص منهم فى أى بقعة من بقاع الأرض عالما كان أو جاهلا أن واحدا ممن وسم بسمة الاسلام فى أى قطر ومن أى جنس صبأ عن دينه رأيت من يصل اليه هذه الخبر فى تحرق وتأسف يلهج بالحوقلة والاسترجاع ، ويعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به ، بل وعلى جميع من يشاركه فى دينه ، ولو ذكرت مثل هذه الحادثة فى تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئين من السنين لا يتمالك قلبه من الاضطراب ، ودمه من الغليان ، ويستفزه الغضب ويدفعه لحكاية ما رأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكى عن عجيب .

« المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل فى ولايتهم من البلدان ، وكلهم مأمور بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتمدين فى الجنس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد منهم ان لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام . ومن فروضهم فى سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الأموال والأرواح ، وارتكاب كل صعب، واقتحام كل خطب ، ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم فى حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم ، وبالغت الشريعة فى طلب السيادة منهم على من يخالفهم الى حد لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره ، لوجبت عليه الهجرة من دار حربه ، وهذه قواعد مثبتة فى الشريعة الاسلامية يعرفها أهل الحق، ولا يغير منها تأويلات أهل الأهواء وأعوان الشهوات فى كل زمان .

« المسلمون يحس كل واحد منهم بهـاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة ، وما يفرض عليه الايمان ، وهو هاتف الحق الذى بقى له من الهامات دينه ، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين فى هذه الأيام بعضهم فى غفلة عما يلم بالبعض الآخر ، ولا يألمون لما يألم له بعضهم ، فأهل بلوخستان كانوا يرون حركات الانجليز فى أفغانستان على مواقع أنظارهم ، ولا يجيش لهم جأش ولا تكون لهم نعرة على اخوانهم ، والافغانيون كانوا يشهدون تداخل الانكليز

فى بلاد فارس ، ولا يضجرون ولا يتململون ، وان جنود الانكليز تضرب فى الأراضي المصرية ذهابا وايابا تقتل وتفتك ، ولا ترى نجدة فى نفوس اخوانهم المشرفين على مجارى دمائهـــم ، بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم ، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم .

« تمسك المسلمون بتلك العقائد واحساسهم بداعية الحق فى نفوسهم مع هذه الحالة التى هم عليها مما يقضى بالعجب ويدعو الى الحيرة ، ويسبق الى بيان السبب . فخذ مجملا عنه : ان الأفكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النفسية وان كانت هى الباعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم ، لكن الأعمال تثبتها وتقويها وتطبعها فى الأنفس وتطبع الأنفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق ، وتترتب عليه الآثار التى تلائمها .

«نعم ان الانسان انسان بفكره وعقائده الا أن ما ينعكس الى مزايا عقله من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير ، فكل شهود يحدث فكرا . وكل فكر يكون له أثر فى داعية ، وعن كل داعية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل الى الفكر ، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الأعمال والأفكار ، ما دامت الأرواح فى الأجساد ، وكل قبيل هو للآخر عماد .

« ان للأخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها فى الاعتصاب والالتمام لولا ما تبعث عليه الضرورات ، وتلجىء اليه الحاجات ، من تعاون الأنسباء والعصبة على نيل المنافع ، وتضافرهم على دفع المضار ، وبعد كرور الأيام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذا يصرفه فى آثارها بقية الأجل ويكون انبساط النفس لعون القريب ، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جاريا مجرى الوجدانيات الطبيعية ، كالاحساس بالجوع والعطش والرى والشبع ، بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعده طبيعيا . فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها ، ولم تدع ضرورات

الحياة فى وقت من الأوقات الى ما يمكن تلك الصلة ويؤكدها ، أو وجد صاحب النسب من يظاهره فى غير نسبه أو ألجأته ضرورة الى ذلك ، ذهب أثر تلك الرابطة النسبية ، ولم يبق منها الا صورة فى العقل تجرى مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات . وعلى مثال ما ذكرنا فى رابطة النسب وهى أقوى رابطة بين البشر يكون الأمر فى سائر الاعتقادات التى لها أثر فى الاجتماع الانسانى من حيث ارتباط بعضه ببعض . اذا لم يصحب العقد الفكرى ملجىء الضرورة أو قوة الداعية الى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلا من أشكالها ، فلن يكون منشأ لآثاره ، وانما يعد فى الصور العلمية له رسم يلوح فى الذاكرة عند الالتفات اليه كما قدمنا .

« بعد تدبر هذه الأصول البينة ، والنظر فيها بعين الحكمة ، يظهر لك السبب فى سكون المسلمين الى ما هم فيه مع شدتهم فى دينهم ، والعلة فى تباطؤهم عن نصرة اخوانهم وهم أثبت الناس فى عقائدهم ، فانه لم يبق من جامعة بين المسلمين فى الأغلب الا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال ، وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضا هجرا غير جميل ، فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس اليها لا تواصل بينهم ولا تراسل ، فالعالم التركى فى غيبة عن حال العالم الحجازى فضلا عمن يبعد عنهم ، والعالم الهندى فى غفلة عن شئون العالم الأفغانى . وهكذا ، بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ، ولا صلة تجمعهم الا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم وآخر . أما فى هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم ، بل لا أنساب بينهم . وكل ينظر الى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه .

« كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين . أليس بعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين فى مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين ؟ أليس

بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين فى الشرق ؟

« هذا التدابر والتقاطع وارسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم . ولا بلد وبلد . الا طفيف من الاحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم ، وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة اذا التقى بعضهم ببعض فى موسم الحجيج العام . وهذا النوع من الاحساس هو الداعى الى الأسف وانقباض الصدر اذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبى عن ملته ، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاضدته . كانت الملكة كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج ، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه . فتداعت للتناثر والانحلال . وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم .

« بدأ هذا الانحلال والضعف فى روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه فى الدين والاجتهاد فى أصوله وفروعه كما كان الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم . كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة الى حد لم يسبق له مثيل فى دين من الأديان ، ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت الى أقسام . خلافة عباسية فى بغداد ، وفاطمية فى مصر والمغرب ، وأموية فى أطراف الأندلس . تفرقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة الى وظيفة الملك ، فسقطت هيبتها من النفوس ، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون اليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة .

« وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيز خان وأولاده وتيمورلنك وأحفاده وايقاعهم بالمسلمين قتلا واذلالا حتى أذهلوهم عن أنفسهم فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى

الالتئام بين الملوك والعلماء جميعا ، وانفرد كل بشأنه وانصرف الى ما يليه ، فتبدد الجمع الى آحاد ، وافترق الناس فرقا كل فرقة تتبع داعيا اما الي ملك أو مذهب ، فضعفت آثار العقائد التى كانت تدعو الى الوحدة ، وتبعث على اشتباك الوشيجة ، وصار ما فى العقول منها صورا ذهنية تحويها مخازن الخيال وتلحظها الذاكرة عند عرض ما فى خزائن النفس من المعلومات ، ولم يبق من آثارها الا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عنـــدما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر الى المسامع على طول من الزمان ، وما هو الا نوع من الحزن على الفائت ، كما يكون على الأموات من الأقارب ، لا يدعو الى حركة لتدارك النازلة ، ولا دفع الغـــائلة .

« وكان من الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التى شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لاحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذى وقع فى الملك بتمكين الاتفاق الذى يدعو اليه الدين ، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق فى مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطا لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة فى سلسلة واحدة اذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ فى جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز فى أقطار مختلفة يرجعون اليها فى شئون وحدتهم ويأخذون بأيدى العامة الى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر ، ويجمعوا أطراف الوشائج الى معقد واحد يكون مركزه فى الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام ، حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان ، والقيام بحاجات الأمة اذا عرض حادث الخلل وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع ، فان احكام الربط انما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف ، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبـل

فشوها بين العامة ، وليس بخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل .

« الا انا نأسف غاية الأسف اذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين الى هذه الوسيلة وهى أقرب الوسائل وان التفت اليها فى هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة ، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم ، فقد دارستهم التجـــارب ببيان لا مزيد عليه ، وما هو بالعسير عليهم أن يبثوا الدعاة الى من يبعد عنهم ، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم ، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة أو ما يخشى أن يمسها بضرر ، ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضه وطلبوا سعادة، والرمق باق والآمال مقبلة ، والى الله المصير » .

الجيش المصرى بقيادة الانجليز والسياسة الاستعمارية فى مصر والهند

وقالت فى عدد ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ (١٨ رجب سنة ١٣٠١) :

« دخل الانكليز مصر فزعموا أن ما كان موجودا من الجنــد الأهلى نفخت فيه روح العصيان فلا يصلح للأعمال العسكرية فطردوه ثم اختاروا من الأهالى جندا جديدا فى عدد قليل . واستلم الرئاسة عليهم ضباطهم البارعون وبعد أشهر أثنوا عليه بحسن النظام وسرعة النجاح وطنطنت بالأطراء عليه جرائدهم ولم نلبث بعد هذا أن رأيناهم يسارعون الى طرد الجند الجديد (١) . فهموا بذلك مرارا مع العزم

---

(١) تأييد لما ذكرته (العروة الوثقى) نقول : ان أول ما فكر فيه الاحتلال من التغييرات الجوهرية هو الغاء الجيش المصرى وخلق جيش هزيل يرأسه ضباط من الانجليز . وقد بادر الانجليز منذ الساعة الأولى الى الغاء الجيش الوطنى ، فأصدر الخديو توفيق فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ بايعاز منهم مرسوما بالغاء الجيش المصرى بدعوى مناصرته للثورة العرابية . وكان التعجيل بهذا الاجراء الخطير ذريعة لانجلترا لتسويغ بقاء جنودها فى مصر بحجةالمحافظة على النظام =

على استبداله بآخر من أبناء الوطن . وكلما صدتهم بعض الموانع السياسية عن هممهم كتموا أمرهم زمنا ثم عادوا للاشارة اليه تعللا بما ينسبونه الى بعض العساكر . وهو من دسائسهم . وآخر الأمر خفتت أصواتهم واحسوا بعجزهم عن الاستبداد بطرد الحامية الوطنية وعلموا أن لابد فيه من مشورة الدول .

« فى هذه الأيام رغبوا الى الدول فى عقد مؤتمر للنظر فى قانون التصفية وتحويره ووضع نظام للمالية المصرية يخفف عنها بعض اثقالها . فصرحوا فى لائحتهم المرسلة الى حكومات أوروبا بضرورة طرد الجند الوطنى رعاية للاقتصاد وبلزوم تخفيض فائدة الديون المصرية (١) .

« ان الانكليز من ست سنوات جعلوا الضيق فى المالية المصرية ذريعة للانقلاب العظيم الذى حصل فى مصر (٢) وألزموا الدولة العثمانية بمجاراتهم فى ذاك الانقلاب ودافعوا عن الدائنين وزعموا

= فيها . وعندما أوفدت انجلترا اللورد دفرين سفيرها بالأستانة الى مصر وعهدت اليه وضع تقرير عن الحالة فيها . ورفع تقريره فى ٦ فبراير سنة ١٨٨٣ الى اللورد جرانفيل وزير خارجيتها وقد تكلم فيه عن الجيش المصرى فذهب الى أن مصر ليست فى حاجة الى قوة عسكرية كبيرة للدفاع عنها (تأمل !) وان مهمة الجيش المصرى يجب أن تنحصر فى اقرار الأمن والنظام داخل البلاد . وأوحى بأن لا يتجاوز عدده ستة آلاف جندى ، على أن يتولى قيادته قائد انجليزى يعاونه لفيف من الضباط الانجليز . وبذلك وضع دفرين فى تقريره قاعدة تجريد مصر من كل قوة حربية وهى السياسة التى حرصت انجلترا على اتباعها طول عهد الاحتلال .

(١) المؤتمر الذى تشير اليه العروة الوثقى هو مؤتمر لندن الذى دعت انجلترا الدول فى ١٩ أبريل سنة ١٨٨٤ الى عقده للمفاوضة فى شئون مصر المالية والنظر فى تعديل قانون التصفية . وقد عقد بلندن فى يونيو سنة ١٨٨٤ . ولم يكن عقده لصالح مصر . بل كان مظهرا للحماية المقنعة التى اعتزمت فرضها عليها . لأن عقد مؤتمر للنظر فى شئون مصر المالية دون السياسة معناه اطلاق يد الانجليز فى مصر على أن هذا المؤتمر قد انفض على غير جدوى اذ لم يتفق المؤتمرون على طريقة تسوية حالة مصر المالية .

(٢) يقصد على الراجح خلع الخديو اسماعيل .

من المحال تنقيص شيء من الفوائد وطلبوا من الحكومة المصرية اذ ذاك تقليل عدد حاميتها ليتوفر من النقود ما يصرف لحقوق الدائنين . واليوم عطفوا على المصريين (عطفة الأب الرحيم) وبسطوا أيديهم الي الدول يلتمسون مساعدتها لتخفيف الفائدة مع محو حاميتهم الوطنية . أليست البلاد المصرية كسائر بلاد العالم تحتاج الى حامية تحفظ حدودها من الخارج وتصون داخلها من الغوائل التى لا تأمن طروقها حكومة من الحكومات . ان فى تلك القسوة الأولى والمرحمة الثانية كسرا عظيما .

« للانكليز فى مصر مطامع من زمن قديم يعدون سلطتهم عليها من ضروريات شوكتهم فى الهند . وفى خلدهم أن المصريين لو كانت لهم ثروة مالية وقوة عسكرية عظيمة فانهم يحالفونهم فيما يريدون ببلادهم . فضيقوا على المالية فى تلك الأوقات . وألجأوا الحكومة لتمزيق قوتها العسكرية ليحصل الضعف فى القوتين المالية والجندية فتمهد لهم طريق ما طمحوا اليه . وكان هذا التدبير سببا فى الانقلاب الذى تبعته هذه الحوادث الهائلة . وبعد ما فتح لهم بضعف الحكومة سبيل المداخلة فى مصر طفقوا يسعون بما جلبوا عليه من الهوينا فى المضى الى مقاصدهم لايجاد عنوان غير التملك يعنون به اقامة عساكرهم ومأموريهم فى تلك البلاد زمنا طويلا . ويكون وضع ذلك العنوان برأى الدول تملصا من الوعد الذى وعدوها به مع ترقب حوادث السياسة فى أوروبا لعل حادثة منها تساعدهم على ابدال العنوان بما هو المطلوب لهم . ورأوا من أحسن الوسائل لدعوة الدول اليهم عرض المسألة المالية .

« ولما كان من المحتوم فى آرائهم بقاء عساكرهم فى الديار المصرية. فلا بد من طلب وسيلة لطرد الجند المصرى حتى تكون الحاجة الى عساكرهم قائمة . هذه طريقة ربما خفيت على المصريين وغفل عنها كثير من الأوربيين الا أنها من الطرق المتعارفة عند الانكليز . وهى التى سلكوها فى البلاد الهندية ونالوا بسلوكها السلطة المطلقة على تلك الأقطار الواسعة بدون سفك دماء غزيرة ولا مقاومة فتن

شديدة . دمر (١) الانكليز على الهنديين فى أراضيهم وانبثوا بينهم فتمكنوا من تفريق كلمة الأمراء واغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال والانفصال عن السلطة التيمورية فتمزقت المملكة الى ممالك صغيرة. ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه . فصارت الأراضى الهندية الواسعة ميادين للقتال واضطر كل نواب أوراجا الى النقود والجنود ليدافع بها عن حقه أو يتغلب بها على عدوه فعند ذلك تقدم الانكليز بسعة الصدر وانبساط النفس ومـــدوا ايديهم لمساعدة كل من المتنازعين وبسطوا لهم احدى الراحتين ببدر الذهب . وقبضوا بالأخرى على سيف الغلب . بدأوا قبل كل عمل بتنفير أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الأهلية ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال ثم أخذوا فى تعظيم شأن جيوشـــهم الانكليزية وقوادها وما هم عليه من العفة والبسالة والنظام حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبه الا بالجنـــود الانكليزية فأقبل الانكليز على أولئك السذج يضمنون لكل صيانة ملكه وفوزه بالتغلب على غيره بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الانكليز ويكون بعض الجنود من الهنديين وبعضها من البريطانيين . وما على الحاكم الا أن يؤدى نفقتها . ثم خلبوا عقول أولئك الأمراء بدهائهم وبهرجة وعودهم ولين مقالهم حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شر بعضهم عن بعض. وصار الانكليز بذلك أولياء المتباغضين وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التى أعدوها للحماية عنها . ففرقة سموها (عمرية) وأخرى سموها (جعفرية) وغيرها سموها (كشتية) ارضاء لأهل السنة والشيعة والوثنيين .

« ولما فرغت خزائن الحكام وقصرت بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الانكليز خزائنهم وتساهلوا مع أولئـــك الحكام فى القرض وأظهروا غاية السماحة . فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة .

---

(١) دمر عليه : دخل بدون اذن أو هجم هجوم الشر .

وبعضهم بدون فائدة وينتظرون به الميسرة حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء . وبعد مضى زمان كانوا يومئون الى طلب ديونهم بغاية الرفق . ويشيرون الى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف . فاذا عجز الأمير عن الأداء قالوا انا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم . ونحن ننصحكم أن تفوضوا الينا العمل فى قطعة كذا من الأرض نستغلها ونستوفى منها ديوننا وننفق من غلاتها على الجيوش التى أقمناها لكم ثم الأرض أرضكم نردها اليكم عند الاستيفاء والاستغناء . وانما نحن خادمون لكم فيضعون أيديهم على غضروات (١) الأراضى وفيحائها . وفى أثناء استغلالها يؤسسون بها قلاعا حصينة وحصونا منيعة كما يفعلون ذلك فى ثكن (أماكن اقامة العساكر) عساكرهم على أبواب العواصم الهندية . وفى خلال هذا يفتحون للأمراء أبوابا من الاسراف والتبذير ويقرضونهم ويقتضون اقرضهم بالقيام على أراض أخرى يضمونها الى الأولى ثم يذكون نار العداوة بين الحكام لتنتشب بينهم حروب فيتداخلون فى أمر الصلح فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثانى عن قطعة من أراضيه . وهم فى جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق والناصح الأمين لكل من المتغالبين . وبعد هذا فلهم شئون لا يهملونها فى ايقاع الشقاق بين سائر الأهالى لتضعف قوة الوحدة الداخلية ويخرب بعضهم بيوت بعض حتى اذا بلغ السير نهايته واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم وغلت الأيدى فلا يستطيع أحد حراكا ساقوا الحاكم الى المجزرة بسيوف تلك العساكر التى كانت حامية له واقية لبلاده وكانت تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة وينفق على صقالها من ماله . ثم خلفوه على ملكه وكانوا يميلون بقوتهم الى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك . فيخلعون المالك ويولون الطالب على شريطة أن يقطعهم أرضا أو يمنحهم امتيازا فيحولون الملك من

(١) الأرض الطيبة . ويقال هم فى غضراء من العيش أى فى خصب وخير .

الأب للابن ومن الأخ لأخيه ومن العم لابن أخيـه وفى الكل هـم الرابحون . هذا سيرهم فى الهند وهو على بعد من مراقبة أوروبا. ما فاجأوا أحدا بحرب وما اختطفوا ملكا بقوة مغالبة بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة الا بعد ما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهاليها ولا بما تطرف به أجفانهم .

« أولئك الانكليز باقعة (١) العالم وأحبال الحيل يريدون اليوم طرد العساكر المصرية . وأرض مصر لا تحرسها الملائكة فلا تستغنى عن حامية . فان تم ما أرادوا زينوا لبعض ذوى السلطة فى مصر أن يطلب منهم جندا انكليزيا يكون خادما له وحافظا لملكه . فان لم يقبل داروا بحيلتهم تحت أستار التمويه على كل من له حق فى الولاية على تلك البلاد يعرضونها عليه حتى يعثروا بمن يقبل نصحهـم أو غشهم ذهولا عن حقيقة القصد فيقيمونه حاكما خلفا لمن لم تسمح ذمته بالقبول وتكون رغبة المغرور حجة لهم عند أوروبا . هذا سر انقلاب الانكليز على الجند الوطنى وقدحهم فى سيرته بعد الثناء على حسن استعداده وسعيهم الى طرده بالأدلة الواهية والعلل الواهنة.

« أما المؤتمر فالداعى اليه أن العدوان فى هذه الأزمان لا يأتيه المعتدون كما كان فى الأحقاب الخالية مشوه الوجه منكر الصورة يعرفه الذكى والغبى . بل من أراد عدوانا فلا بد أن يحفه بمواكب من الأدلة وحفال (٢) من البراهين وهـو ما يعبرون عنه بالحقوق والمصالح . وما أصعب الوقوف على كنه العدوان وهو فى هـذه الحيلة وتلك الهيئة الجميلة .

« يريد الانكليز عقد المؤتمر ويرغبـون قصر المداولة فيه على المسألة المالية ليضمنوا ديون القطر المصرى ويكفلوا للدائنين أداء حقوقهم وأخذوا على أنفسهم عهدة الانفاق على الادارات المصرية مدة

---

(١) الباقعة : الداهية .
(٢) الحفال : الجمع الكبير .

من الزمان لترخص لهم الدول الاقامة فى وادى النيل الى أمد فيكون تفويض الدول حجة لهم فى التصرف وادارة شئون الحكومة المصرية ما دام السلم مظلا بلاد أوروبا . فاذا حدث حادث حرب فى الدول الأوروبية وما هو ببعيد الوقوع تربعوا فى تلك البـــلاد وأناخوا بكلاكلهم وضربوا بجرانهم على أراضيها وألقوا عصاهم . هذا سر شفقة الانكليز على المصريين وهو سر رغبتهم فى وقوف المؤتمر عند شئون المالية .

« هذه المصيبة العظمى والداهية الدهماء التى تتحفز لتنقض على المصريين هل تمس بحفيفها جانب ألمانيا . كلا . فان منافع ألمانيا الحقيقية لا تعلق لها بالمسائل المصرية وهى فى الشغل بما هو أهم منها . وليست دولة (اوستريا) بأقرب الى المصائب المصرية من ألمانيا . على أن كلا من الدولتين ليس فى استطاعتهما تأييد فكرها بالعمل لو مست الحوادث المصرية شيئا من مصالحها . فان مواقع الدولتين لا تساعدهما على الاضرار بدولة الانكليز . أما ايطاليا فهى ساكنة الجأش بما تؤمل نواله فى أفريقية بمساعدة انكلترا » .

سوء الأحوال فى مصر

ونشرت فى عدد ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤م (٢٥ رجب سنة ١٣٠١م) رسالة جاءتها من مصر تصف سوء الأحوال فى مصر وتذكر طرفا مما يعانيه المواطنون نتيجة للسياسة الانجليزية قالت :

كتب الينا صديق فاضل من خلص المؤمنين بالقطر المصرى قال:

ان مأمورى الانكليز الآخذين بزمام بعـــض الوظائف المصرية لا يزالون يسعون فى تغرير الأهالى والتحيل عليهم ودس الدسائس بينهم بطرق مختلفة من الترغيب والترهيب كل ذلك ليرضـــوهم بطلب الحماية الانكليزية . الا أن أولئك الأبالسة لا يلاقون فى سعيهم الا خيبة . لأن العلماء وأعيان البلاد قد أحاطوا بغـــايات الانكليز

ومقاصدهم وعلموا أنهم لا يقصدون بالبلاد الا الشر كما لم ينلها من حلولهم الا الضر خصوصا وأن روح الحمية والغيرة الدينية والوطنية صار لها السلطان الأعظم على نفوس أهالى القطر المصرى فاشتدت انفتهم من تسلط الانكليز فى ديارهم وقاوموا مطالبهم بعزائم ثابتة وقلوب غير واجفة وهذا هو ظننا بل يقيننا فى أبناء القطر المصرى علمائهم وأمرائهم وحكامهم وأعيانهم وأوساطهم بل وسائر طبقاتهم أن لا تسمح نفسٍ واحد منهم بمجاراة الانكليز فى رغبتهم وأن لا يطمئن قلبه بالدخول تحت سيادتهم بل ببقاء شخص منهم فى بلاده وعلى مرمى نظره فان وجد بينهم شخص يتخذ الهه هواه ويميل مع الباطل فهو ممن يعرف المصريون سيرته فى افناد (١) ليله وأطراف نهاره فلا يثقون به .

ومما أخبر به الصادق أن كليفورد لويد يجتهد لتسليم رئاسات البلاد الى أناس من طبقة يتوهم فيها سقوط الهمة وسخافة الرأى ليتمكن بهم من اجراء بعض مقاصده لكن لم يتسن له نجاح ولئن نجح فى تحويل الرئاسات من نصابها فلا يلاقى ممن يستلمونها الا مثل ما لاقى من غيرهم فان الجميع مصريون يفضلون ظلم أبناء وطنهم على عدل الأجنبى فكيف لو كان الأجنبى لا يقاس بظلمه ظلم .

الى أن قال الصديق الفاضل : أما الفلاحون فأحوالهم سيئة : ضيق وضنك وفقر واعدام مما يفتت الأكباد ويذيب القلوب ويفطر الجماد . الحكومة مضطرة لطلب الأموال وملجأة الى تكليف الفلاحين بدفع ما عليهم والأجانب قائمون على اقتضاء ديونهم منهم والكساد ورخص أسعار الحبوب وثمرات الزراعة لم يجعل فى المحصولات وفاء بضرورات المعيشة فضلا عن أداء المطلوبات فكيلة القمح بستة قروش والذرة بأربعة وعلى هذا يقاس . ومن ثم تسمع كل يوم تنعاب أغربة الدلالين فى فناء ديوان الحقانية (٢) على خراب

---

(١) الأفناد : الطوائف .

(٢) يريد المحكمة المختلطة .

بيوت الفلاحين هذا ينادى على بيع أراضيه باسرها وهذا يتفق عليه بمبيع بعضها والآخر بالحجز على أملاكه والحكومة لا تنى فى طلب ضرائبها قبل أوان المحصولات .

أما أحوال المدن فليست باسعد من أحوال الأرياف خصوصا من تعديات الأجانب على سكانها فالمنازعات والمخاصمات بين الأجانب والوطنيين يقضى فيها على الوطنى بالتغريم والجزاء ولا يؤخذ على الأجنبى فى شيء وان كان هو المعتدى . وان سأل الوطنى أين خصمى فيقال له انه يحاكم فى محل آخر مع انه لم يذهب الى مقام المحاكمة رأسا واكتفى فى فصل الدعوى بأحد الخصمين وهو طرز من الحكم جديد (هذا بعض آثار العدالة الانكليزية) .

وجاء فى خبر صديقنا هذا رواية كثير من المظالم التى أصيب بها أهل القرى من جراء التداخل الانكليزى فى ادارات الحكومة ضربنا عن ذكرها رعاية لجانب الاختصار بعد وضوحها عند أولى الأمر من المصريين .

أما الأمن فلم يبق له اثر وأما النظام ففد نقص بناؤه واقتلع أساسه واختزن الانكليز نقاضه فى خزائن الآثار القديمة فقويت عصابات اللصوص وجاهروا بالنهب والسلب وهذا خبر تؤكده روايات الجرائد الوطنية المصرية عربية وأفرنجية فانجميعها يشتكى الملل والسآمة منرواية أخبار السوء كليوم ، الا أن من غريبالوقائع هجوم لفيف من السارقين على قرية (نشرت) ونواحيها من مديرية الغربية وقتلهم . واحدا وأربعين رجلا فان خبر هذه الواقعة ان صح كان دليلا على بلوغ الاختلال الى درجة فوق ما كنا نتصور نسأل الله السلامة كما نسأله ابدال عسر المصريين باليسر وهو على كل شيء قدير .

رئيس وزراء مصر
يستأذن للسفر من وزير خارجية بريطانيا

وكتبت فيعدد ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤هـ (٢٥ رجبسنة ١٣٠١هـ) النبأ الآتى :

« الى اللورد غرانفيل (١) أن يرخص لنوبار باشا بالسفر الى أوروبا مدة غيبة السير بارننج (٢) فان أصر نوبار باشا على طلب الرخصة فان اللورد غرانفيل يطلب من الخـــديو أن يستبدله برياض باشا أو شريف باشا . هذا كله والانكليز لا يريدون أن تكون مصر تحت سيادتهم ولا يحبون أن يرفع عليها علم حمايتهم . وليس يدرى ما الغرض من السيادة والحماية سوى التصرف فى الادارة أو التحكم فى أولياء الأمور . هذا وزير مصر الأكبر لا ينال رخصة سفر الا باذن من غرانفيل ولا يأذن له ويرى أن له أمرا على الخـــديو باستيزار فلان وعزل فلان . فان لم تكن هذه سيادة فما هى السيادة ؟ » .

وحدة الكلمة والتحذير من الشقاق

وكتبت المقالة الآتية فى عدد ٥ يونيه سنة ١٨٨٤ (١٠ شعبان سنة ١٣٠١) تحت عنوان (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضـــه بعضا) تنعى فيها تفرق أهواء الأمم الشرقية وتدعوها الى الاتحاد وتحذرها من الشقاق قالت :

« أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة ، ويهدى اليهما الدين تارة أخرى . وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب ، وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه . بل يستلزمه ، وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها ، وهما الميل الى وحدة تجمع ، والكلف بسيادة لا توضع . واذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقى بوانيـــه

(١) غرانفيل Granville وزير خارجية بريطانيا وقتئذ .

(٢) أقلين بارننج Evelin Barning المعتمد البريطانى فى مصر الذى صار اللورد كرومر .

(يثبت ويقيم) الى أجل مسمى أودع فى ضآضئه (أصوله) هذين الوصفين الجليلين . فأنشأه خلقا سويا ، ثم استبقى له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين الى منتهى أجله .

« كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها ، ويشتد به بناؤها ، فلابد يوما أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى اثرها من بسيط الأرض . ان التغلب فى الأمم كالتغــذى فى الحياة الشخصية ، فاذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حـركة النمو ، ثم ارتدت الى الذبول والنحــول ، ثم أفضت الى الموت والهلاك . وليس من الممكن لأمة أن تحفظ قوامها . وتصول على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لنمائها ، الا أن تكون متفقــة فى تحصيل ما تحتاج اليه هيئتها . اذا أحسست من أمة ميـلا الى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها فى مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم ــ اذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرينا أحوال الشعوب فى وجودها وفنائها . وجدنا هذه ســنة الله فى الجمعيات البشرية ، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة ، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها فى الغلب ، وما انحط شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم الا عند لهوهم بما فى أيديهم ، وقناعتهم بما تسنى لهم ، ووقوفهم على أبواب ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء، وما أهلك الله قبيلا الا بعد ما رزئوا بالافتراق ، وابتلوا بالشقاق ، فأورثهم ذلا طويلا ، وعذابا وبيلا ، ثم فناء سرمديا .

« الوفاق تواصل وتقارب يحدثه احساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها ، وشعور جميع الآحاد فى جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان ، فيلذ لهم كما يلذ أشــهى مرغوب لديهم ، وبما تفقده من ذلك ، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به ، وهذا الاحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر فى أحــوال أمته ، ليجعل جزءا من زمنه للبحث فيما يرجع اليهــا بالشرف والسؤدد وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة ، ولا يكون همه بالفكر فى هذا أقل من همه بالنظر فى أحواله الخاصة ، ثم لا يكون نظرا عقيما

حائرا بين جدران المخيلة ، دائرا على أطراف الألسنة ، بل يكون استبصارا تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكماله بما يمكن من السعة ، وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون فى استحصال مواد المعيشة بلا فرق ، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة فى المكان الأول من النظر ، والدرجة الأولى من الاعتبار ، والشئون الخاصة فى المنزلة الثانية منهما . ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة ، بل يأخذ العقلاء منها سيلا من التفكير ، ويخترطون سيوفا من الهمة ، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة ، ونواد من المكنة ، ويستخرجوا دفائن من الثروة ، ويجمعوا ذلك للأمة ، لصيانة حياتها الى حد العمر اللائق بها ، كما يسعى الحازم جهده لتوفير ما يلزم لمعيشته ، وما يطمئن به قلبه فى دفع حاجته مدة العمر الغالب ، بل يزيد عليه ما فيه الكفاية لأبنائه من بعده . وان الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون . ثم تتلوه سائر الأدوار ، وأولها أقصرها وهو سن الطفولة ، وبدء الكمال فيما يليه ، فما أرفع همم العقلاء فى الأمم المستبصرة .

« اذا بلغ الاحساس من مشاعر أفراد الأمة الى الحد الذى بيناه ، رأيت فى الدهماء منهم والخاصة هِمما تعلو ، وشيما تسمو ، واحتراما يقود ، وعزما يسوق ، كل يطلب السيادة والغلب ، فتتلاقى هممهم ، وتتلاحق عزائمهم فى سبيل الطلب . فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم ، كما تندفع السيول على الوهاد ، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا اليه ، ويكون نزوهم على الأمم بعد الغلب الأول تدفقا من الطبع لا يحتاج الى فكر وروية الا فى اعداد وسائل الفوز والظفر .

« هذان الأمران : الوفاق والغلب . عمادان قويان ، وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية ، وفرضان محتومان على من يستمسك بها ، ومن يخالف أمر الله فيما فرض منهما عوقب من مقته بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة . جاء فى قول صاحب الشرع أن « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وأن المؤمن

ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه اذا مس أحـــدها ألم تأثر له الآخر . وجاء فى نهيه « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا . وكونوا عباد الله اخوانا » وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلكة ، وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب .

« هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله ، ونهاهم عن التفرق والتغابن وامتن عليهم بنعمة الأخوة بعد أن كانوا أعداء ، ونطق الكتاب الالهى (انما المؤمنون اخوة) وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا باصلاح ذات البين عند التخالف ، ثم شدد فى وجوب الاصلاح وان أدى الى مقاتلة الباغى فقال (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله) وانما أمر الله بالدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) وأوعد الكتاب الاقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم ، فحكم بأن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله ما تولى ، ويصله جهنـــم وساءت مصـــيرا .

« وفى أمره الصريح ايجاب التعاون على البر والتقوى ، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق واعلاء منار الأمة ، وأخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أن « يد الله مع الجماعة »وكفى بالقدرة الالهية عوناًاذا صح الاجتماع وصدقت الألفة ، وقد بلغت مكانة الاتفاق فى الشريعة الاسلامية أسمى درجة فى الرعاية الدينية حتى جعل اجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفا عن حكم الله وما فى علمه ، وأوجب الشرع الأخذ به على عموم المسلمين ، وعد جموده مروقا من الدين ، وانسلاخا عن الايمان . ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله صلى الله عليه وسلم « لو دعيت الى حلف الفضول لفعلت » (حلف الفضول ما كان من هاشم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم ، وسمى حلف الفضول لأنهم تحالفوا على أن لا يدعو عند

أحد فضلا يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم الا أخذوه منه وردوه لمستحقه) . فهو من حلف الجاهلية ، وقد صرح الشارع بقبوله لو دعى اليه .

هذا اجمال الأدلة على وجوب الاتفاق وحظر المنابذة والمغابنة بين المسلمين ، بل بينهم وبين غيرهم ممن رضى بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف فى شرعهم ، فان سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه .

« وأما السعى لاعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة ، فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف الا وهى داعية اليه ، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه ، حاظرة عليهم أن يتوانوا فى أداء الفروض منه . ومن الأوامر الشرعية أن لا يدع المسلمون تنمية ملتهم . حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وفى السنة المحمدية والسيرة النبوية مما يضافر آيات القرآن ما جمعه العلماء فى مجلدات يطول عددها ــ هذا حكم ديننا لا يرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته .

« هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون الى الضيم أن ندعى القيام بفروض ديننا ؟ كيف ومعظم الأحكام الدينية موقوف اجراؤه على قوة الولاية الشرعية ، فان لم يكن الوفاق والميل الى الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب الا به ؟ فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا ؟ هل لنا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين ؟ وأيسر شىء علينا اقامتهما وعديدنا مئتا مليون أو يزيد ؟ هل يتيسر لنا اذا خلونا بأنفسنا وجادلتنا ضمائرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن ؟

« كل هذه الرزايا التى حطت بأقطارنا ، ووضعت من أقدارنا ، ما كان قاذفنا ببلائها ورامينا بسهامها الا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه . لو أدينا حقوقا تطالبنا بها تلك الكلمة التى تهل بها ألسنتنا ، وتطمئن قلوبنا بذكرها ، وهى كلمة الله العليا ،

هل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق ، وهل كان يلمع سيف العدوان فى وجوهنا ، وهل كنا نشيم نيران الأعداء الا وأقدامنا فى صياصيهم ، وأيدينا على نواصيهم ؟

ان لأبناء الأمة الاسلامية يقينا بما جاء به شرعهم ، لكن أليس على صاحب اليقين يدين أن يقـــوم بما فرض الله عليه فى ذلك الدين ؟ (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) (ولقـد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين).

ولا ريبة فى أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقا لا كاذبا ، وأى صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب الا الصدق فى العمل ؟ هل يود المسلم لو يعمر ألف سنة فى الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة الدنيا دليل الايمان ؟ أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ، وأن يستبد فى ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ، ولا يرد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا الا ولا ذمة ، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا ويستخلف فيها بعدنا أبنـــاء جلدته والجالية من أمته ؟

« لا . لا . ان المخلصين فى ايمانهم الواثقين بوعد الله فى نصر من ينصر الله الثابت فى قوله (أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) لا يتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم ، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية ، فأين المفر ؟

« المبصر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه الا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين . هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة ، وأملاكنا ممزاقة ، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقى من أيدينا ثم لا نبدى حركة ، ولا نجتمع على كلمة ، وندعى مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد ؟ واخجلتاه لو خطر هذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجرى على لسانه شاهد الاسلام.

« ان الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة فى حفظ حوزة الإسلام . كل هذه صفات كامنة فى نفوس المسلمين قاطبة ،

ولكن دهاهم بعض ما أشرنا اليه فى أعداد ماضية . فألهاهم عما يوحى به الدين فى قلوبهم وأذهلهم أزمانا عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانحهم ، فسهوا وما غووا ، وزلوا وما ضلوا ، ولكنهم دهشوا وتاهوا ، فمثلهم مثل جواب المجاهيل من الأرض فى الليالى المظلمة ، كل يطلب عونا وهو معه ، ولكن لا يهتدى اليه ، وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لايصال أصوات بعض المسلمين الى مسامع بعض . لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم فى أقرب وقت . وليس بعسير عليهم ذلك بعدما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام . وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع . وفى تلك البقعة عشير الله من جميع أجيال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم . فما هى الا كلمة تقال بينهم من ذوى مكانة فى نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض وتضطرب لها سواكن القلوب . هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية . فان أضفت اليه ما أذاب قلوبهم من تعديات الأجانب . وما ضاقت به صدورهم من غارات الغرباء على بلادهم حتى بلغت أرواحهم التراقى . ذهبت الى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدا يوشك أن يكون فعلا . وهو مما يؤيد الساعين فى هذا المقصد ويهيىء لهم فوزا ونجاحا بعون الله الذى ما خاب قاصده . وهو ربى اليه أدعو واليه أنيب .

الوسائل لحفظ كيان الدولة

وكتبت فى عدد ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ (٢١ ذى القعدة سنة ١٣٠١) مقالة بعنوان (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) .

أوضحت فيها أن البلاد التى أصيبت فى كيانها واستقلالها كانت هى الظالمة لنفسها اذ كانت تثق بأعدائها الطامعين فيها وتتخذ منهم أولياء فكانوا حربا عليها وأن المترفين فى تلك البلاد كانوا صنائع للاستعمار . وأن القوة والعدل هما أساس الملك . فقالت :

« أهلك الله شعوبا ، وأباد قبائل ، ودمر بلادا ، ولا يزال عدل الله يبدل قوما بقوم ويأتى لكل حين بأناس آخرين . فكم سبقت رحمته غضبه ، جعل لكل عمل جزاء ، وعين بحكمته لكل حادث سببا ، (ولا يظلم ربك أحدا) . وليست أفعاله جزافا ، ولا يصدر عنه شيء عبثا . أمر الله عباده بالسير فى الأرض (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل فيمن سلف ومن خلف ، فيطيعوا أوامره ، ويقفوا عند حدود شرائعه ، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة .

من كان له قلب يعقل وعين تبصر ، وعقل يفقه ، وتتبع حوادث العالم ، وتدبر كيفية انقلاب الأمم وخاض فى تواريخ الأجيال الماضية ، واعتبر بما قص الله عليه فى كتابه المنزل يحكم حكما لا يخالفه ريب ، بأنه ما حاق السوء بأمة وما نزلت بها نازلة البلاء ، وما مسها الضر فى شيء ، الا وكانت هى الظالمة لنفسها بما تجاوزت حدود الله ، وانتهكت حرماته ، ونبذت أوامره العادلة ، وانحرفت عن شرائعه الحقة ، وحرفت الكلم عن مواضعه ، وأولت من كلامه تعالى على حسب الأهواء والشهوات .

« كما أن للأغذية والأدوية واختلاف الفصول والأهوية أثرا ظاهرا فى الأمزجة بتقدير العزيز العليم ، كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الانسانية ولكل طور من أطوار البشر أثر فى الهيئة الاجتماعية . ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود ، وتقرير الأحكام ليتبين الخير من الشر ، ويتميز النفع من الضر ، فأرسل الرسل ، وانزل الكتب ، فمن خالف الأوامر الالهية فقد ظلم نفسه ، فليستعد لخزى الدنيا وعذاب الآخرة .

« ان تأثير الفواعل الكونية فى أطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر . أما تأثير أحوال بنى الانسان فى هيئة اجتماعهم ، فيسهل الوقوف على سره لكل ذى ادراك ، ان لم تكن عين بصيرته عمياء .

« ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأى فى المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة فى المنافع الكلية سببا للقوة واستكمال لوازم الراحة فى هذه الحياة الدنيا ، والتمكن من الوصول لخير الأبد فى الآخرة . وجعل التنازع والتغابن علة للضعف ، وداعيا للسقوط فى هوة العجز عن كل فائدة دينوية أو أخروية ، ومهيئا لوقوع المتنازعين فى مخالب العاديات من الأمم . فمن نظر نظرة فى أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها ، ولم يكن مصابا بمرض القلب ، وعمى البصيرة، أدرك سر أمر الله فى قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا) وسر نهيه فى قوله (ولا تفرقوا) وقوله (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) (١) .

« ان الله تعالى جعل الركون الى من لا يصح الركون اليه ، والثقة بمن لا تنبغى الثقة به ، سببا فى اختلال الأمن وفساد الحال ، فمن وثق فى عمله بمن ليس منه فى شىء ، ولا تجمعه معه جامعة حقيقية ، ولا تصل به رابطة صحيحة ، وليس فى طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته ، أو كتم سره ، ولا ما يحمله على بذل الجهد فى جلب منفعته ، ودفع المضار عنه ، فلا ريب يفسد حاله ، ويسوء مآله ، وأن كان مليكا ضاع ملكه ، أو أميرا بطل أمره ، والحوادث شاهدة ، وأحوال المغرورين ناطقة ، فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهى الله تعالى فى قوله (لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) وقوله (لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) وسائر نواهيه المبينة على الحكمة البالغة المرشدة الى مصالح الدارين .

« لكل شخص فى طبقته من أمته عمل مفروض عليه ، وواجب يلزمه القيام به ، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة فى هذه الدنيا ،

---

(١) جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم .

ويعد لها مآلا صالحا فى الآخرة . وهو انسان له قلب واحـــد ، لو جعل معظم همــه فى شىء فاته ســائر الأشياء ، فلو توغل فى الشهوات ، وبالغ فى الترف ، وبطر فيما أنعم عليه ، فقد أغفــل فرائضه ، وأضر بنفسه ، وحرم من منافعه ، وحل به من عقاب الله أشد الوبال ، وخسر الدنيا والآخرة معا . وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره ، واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه فى بلدته ، أو يواطنه فى مدينته . .

وهذه آثار المترفين فى كل امة تنطق بمالا يعجم الا على أذن صماء ، وتشهد بما لا يخفى الا على بصيرة كمهاء (١) ، وان فيما قص الله علينا من أحوال المترفين لأكبر عبرة (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين) . . (حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون . . لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون) . . (ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب الله عليهم (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) .

« ما أوتى الانسان من العلم الا قليلا . لا يمكن الانسان وحــده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه ، ولا أن يطلع على منافع فوائده ليكسبها ، أو يكشف مكامن مضاره فيتقنها ، خلق الانسان ضعيفا فأرشده الله للاستعانة بغيره من بنى جنسه (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) خلقنا محتاجين للعون مضطرين للنصير وهدانا ربنا للتعاون والتناصر .

« هذا مما يحكم به العقل فى المصالح الخاصة ، فكيف لو كان شخص ولاه الله رعاية أمته ، وألقى اليه بزمام شعب مصالحه العامة تحت ارادته ، وهو الوازع فيه والواضع والرافع . لا ريب أن مثل هذا الشخص أحوج الى المشورة والاستفادة من آراء العقــلاء »

---

(١) الأكمة : من يفقد نور عينيه منذ ولادته . والأنثى كمهاء .

وهو أشد افتقارا الى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته وتكون سعة دائرة افتقاره الى التشاور على مقدار سعة سلطانه ، وقد أمر الله نبيه المعصوم عن الخطأ بالمشورة تعليما وارشادا فقال (وشاوِرهم فى الأمر) وقال فيما امتـــدح به المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) .

أى بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم ؟ وأى بصيرة لا تهتدى الى هذا المنهج القويم ؟ (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين) .

« ان وازع البلاد والقائم على الملك لو لمح لمحة الى نفسه لرأى أن بلاده فى كل وِقت معرضة لأطماع الطامعين ، وأن الحرص المودع فى طباع البشر يحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليذلوا قومه ، وليستعبدوا أهله ، ويستأثروا بمنافع أرضـــهم ، وثمار كدهم ، ويمنحوها أبناء جلدتهم . فعليه وعلى من يشركه فى أمره من عماله ، والحكام النائبين عنه فى ايالاته ، وقواد جيشه ، وعلى كل أرباب الرأى ، ومن بهم قوام الملك ، أن يســـتعدوا لدفع طوارىء العدوان ، ورفع نوازل الغارات الأجنبية . فلو فرطوا فى اعداد لوازم الدفاع ، أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الأطماع ، أو تهاونوا فيما يشد قوتهم ، ويقوى شوكتهم ، بأى وجه كان ، ومن أى نوع كان ، فقد عرضوا ملكهم للهلاك ، والقوا بأنفسهم فى مهاوى الأخطار .

« هذا مما يفهمه الأبلة والحكيم ، ويصل اليه ادارك الجـاهل والعليم . وهو سر الافصاح والابهام فى قوله تعالى (وأعـدوا لهم ما استطعتم من قوة) أمر باعداد القوة ووكلها الى الطاقة وحكم الاستطاعة ، على حسب ما يقتضيه الزمان . وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم ، هذا أمر الله ينبه الغافل ، ويذكر الذاهل ، (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) .

« اعطاء كل ذى حق حقه ، ووضع الأشياء فى مواضعها ، وتفويض أعمال الملك للقادرين على آدائها ، مما يوجب صيانة الملك

وقوة السلطان ، ويشيد بناء السلطة ، ويحكم دعائم السطوة ، ويحفظ نظام الداخل من الخلل ، ويشفى نفوس الأمة من العلل . هذا مما تحكم به بداهة العقل ، وهو عنوان الحكمة التى قامت بها السموات والأرض ، وثبت نظام كل موجود ، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع فى قوله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة فى كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناءه واضمحلاله . كذلك الجور فى الجمعيات البشرية يسبب دمارها . لهذا حثت الأوامر الالهية على العدل ، وكثر النهى فى الكتاب المجيد عن الظلم والجور . والحكام أولى من توجه اليهم الأوامر والنواهى فى هذا الباب . العدل هو الحكمة التى امتن الله بها على عباده ، وقرنها بالخير الكثير فقال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) وهى مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية ، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير .

« من سار فى الأرض ، وتتبع تواريخ الأمم ، وكان بصير القلب، علم أنه ما انهدم بناء ملك ، ولا انقلب عرش مجده الا لشقاق واختلاف ، أو ثقة بمن لا يوثق به ، وتخلل العنصر الأجنبى ، أو استبداد فى الرأى ، واستنكاف عن المشورة ، واهمال فى اعداد القوة ، والدفاع عن الحوزة ، أو تفويض الأعمال لمن لا يحسن أداءها ، ووضع الأشياء فى غير مواضعها ، فيكون جور فى الحكم ، واختلال فى النظام ، وفى كل ذلك حيد عن سنن الله ، فيحل غضبه بالخاطئين، وهو أحكم الحاكمين .

« لو تدبرنا آيات القرآن ، واعتبرنا بالحوادث التى ألمت بالممالك الاسلامية ، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه ، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذى ضربه الله لنا ، وأرشدنا اليه ، وبيننا من اتبع أهواء الأنفس وخطوات الشيطان ، (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم) .

فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة ، وقواد الملة المحمدية ، ان يهتموا بتنبيه الغافلين عما أوجب الله ، وايقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين ، ويعلموا الجاهل ، ويزعجوا نفس الذاهل ، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم ، وليستلفتوهم الى ما أعد الله لهم لو استقاموا ، ويحذرهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع الى ما كان عليه النبى واصحابه ، ورفض كل بدعة ، والخروج عن كل عادة سيئة ، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز ، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية ، وما نزل بها من قضاء الله عند ما حادت عن شرائعه ، ونبذت أوامره (فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) .

« على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكيرهم وعد الله ووعده الحق فى قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) . هذه وظيفة العلماء الراسخين . وما هم بقليل بين المسلمين . ولا نظنهم يتهاونون فيما فرض الله عليهم . ووكل الى ذمتهم . وهم أمناء الدين وحملة الشرع ورافعو لواء الاسلام . وأوصياء الله على المؤمنين . أعانهم الله على خير أعمالهم ونفع المؤمنين بارشادهم .

ولاء الخديو توفيق للاحتلال

وكتبت فى عدد ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ (٢٢ شوال سنة ١٣٠١ النبذة الآتية بعنوان توفيق باشا) .

« يتوكأ الانجليز على توفيق باشا فى حركتهم بمصر ويتخذونه آلة لتخريب بلاده وهدم ملكه . وما يكون من شر ينسبونه اليه وما عساه يوجد من خير يصلون نسبته بهم ويردونه الى أنفسهم . وفيما بين ذلك يبغضون اليه الولاية الاسلامية ويحببون اليه اغفال الأصول الدينية . وهو يميل معهم ويمدهم فى مقاصدهم ويطوع البلاد لهم بما بقى له من السلطة الصورية . كما يتظاهر بالتدين

والمحافظة على الصلوات . فان كان باطنه يطابق ظاهره وكان معتقدا بدين الاسلام فعليه أن يتنحى عن الأمر ويترك الملك لمن يستطيع انقاذه مما هو فيه فتبرأ ذمته من العار الذى يلحقه ويلحق بيت محمد على من تصرفه . فان لم يكن هذا فعليه أن يجهر بعقيدته ويقاوم الانكليز بما فى جهده ويموت شهيدا فى سبيل دينه ووطنه . والا فليس يغنى عنه من الله شيئا أن يظهر عند أهل خاصته وحاشيته انه ناقم على الانكليز كاره لوجـــودهم فى بلاد مصر ويود لو يخـــرجون كما أنبأتنا الأخبار الخصوصية من القطر المصرى .

اذا تمادى توفيق باشا فى سيره الملتـــوى فعلى المصريين أن لا يقعوا صيدا فى يد الانكليز بهذه الحبالة البالية وهذا الفخ الواهن ولينظروا فى شئونهم وما توجبه عليهم فروض دينهم ، والا فما الله بغافل عنهم .

وفى هذا المعنى كتبت الجريدة المقالة الآتية فى نفس العدد :

« كثيرا ما أتينا فى جريدتنا على بيان الانكليز فى تملك الهنـــد وتذليلهم لأهاليه وذكرنا ان سيرة الحكومة الانكليزية فى افتتاح البلاد لا تشابه سير الفاتحين الذين يزحفون بخيلهم ورجلهم على الأقطار فيقتلون ويقتلون حتى يتغلبوا على من يريدون . وقلنا ان الانكليز ملكوا نحو ثلث العالم بلا سفك دماء غزيرة ولا صرف أموال وافرة وانما ملكوا ما ملكوا بسلاح الحيلة . يدخلون فى كل بلد أسودا ضارية فى جلود ضأن ثاغية . يعرضون أنفسهم فى صورة خـــدمة صادقين وآمنة ناصحين طالبين للراحة مقومين للنظام . نادينا مرارا بأن الانكليز اذا أرادوا التدخل فى ملك للشرقيين ورأوا أن القائم به رجل حاذق بصير وأن وجوده فى الملك يبطىء سيرهم الى ما يقصدون بادروا الى التشويش عليه . فاما أن يفسدوا عليه قلوب رعيته ويثيروا عليه أحقادها أو يغروا أحد أعضاء العائلة المالكة بالعصيان وطلب الملك ليجدوا فى ذلك وسيلة للدخول فى الأمر . أو يتفقوا مع الوزراء على خلع صاحب السلطة ثم ينصبوا بدله

اما ضعيفا أحمق واما صبيا لم يبلغ الرشد ، اما من أبناء المالك أو أقاربه ــ ليتمكنوا من بلوغ مقاصدهم تحت علمه ويبلغوا غاياتهم باسمه ويقطعوا المسافة الطويلة فى مدة قصيرة بلا ممانع ولا عائق مع اصابتهم جزيل الأجر على ما عملوا فى بداية العمل .

الى أن قالت :

من أدق رجال الحكومة الانكليزية فى فن الحيلة وأمهرهم فى صناعة الخدعة وأطولهم باعا فى النفاق وأحذقهم فى اختراع الوسائل لسلب الأملاك من أربابها وأشهرهم فى عداوة المسلمين ذلك اللورد المحموم (نور ثبروك (١)) . كان هذا الرجل البارع حاكما فى الهند . فأذاق أهاليه من العذاب فى كئوس المحبة والوداد . كم خرب بيوتا وقلب عروشا وكم خفض رفيعا وأذل عزيزا وهو فى جميع سيئاته يبكى بكاء الشفقة ويسكب دموع المرحمة على الهنديين ويقول اننى أول انكليزى تهمه رفاهة أهل الهند واننى وحيد بين الانكليز بمحبة الهنود والسعى فيما يعود عليهم بالصلاح والنجاح واننى أستغفر الله ان كنت قصرت فى عمل يوصل بهم الى الفلاح . وينادى فى الهنديين بقوله : وأسفاه أنكم الى اليوم ما عرفتمونى ولا أحطتم بما حواه ضميرى من ارادة الخير لكم هذا هو الكاهن الحاذق فى وعظه « ودونه فى النفاق عبد الله بن أبى سلول رأس المنافقين فى الاسلام » ان الحكومة الانكليزية عرفت قدره فى براعته ومعرفته بوجوه المكر وخبرته بأحوال الأمراء الشرقيين وسعة علمه بكيفيات التصرف فى عقولهم وأهوائهم وطرق أخذهم من حيث لا يشعرون — واعترفت له حكومته بصدق الطوية فى معاداة المسلمين . لأجل هذا قررت ان تبعثه

---

(١) اللورد نورثبروك Lord Northbrook حاكم الهند العام السابق وقد أوفدته انجلترا الى مصر فى أغسطس سنة ١٨٨٤ ومهمته درس الحالة فى مصر وتعرف « النصائح » التى ترى بذلها للحكومة المصرية لكى تستأنف بحث ما أخفق فيه مؤتمر لندن . وقد أكرم الخديو توفيق وقادته . وأخذ يزور المصالح والدواوين ويستقبل الموظفين والأعيان كأنه الحاكم بأمره .

على مصر وعزمت على ارساله اليها مفوضا من قبلها يفعل ما يشاء. ولكن لا نظن حبالته الخداعية تصرع فطانة المصريين وتأخذ عقولهم . فان تسنى له نجاح ورضى المصريون على أنفسهم عار الذل ووصمة الضيم فلا يكون الا باستعمال توفيق باشا آلة فى جميع أعماله يستخدمه لادخال مصر فى ملك الحكومة الانكليزية . يلقنه الأوامر السامية ويلهمه الارادات السنية لتذليل أهل بلاده وسوق المصريين لقتل أخوانهم وفتح البلاد الثائرة واقرار السلطة فيها للحكومة الانكليزية . فان تم له ما يريد من تسكين الفتن وتقريب المصريين للرضاء بحكومة تنفر منها طباعهم عمد الى خلع توفيق باشا بأية علة وطلب تولية ابنه عباس لكونه ولدا صغيرا لم يبلغ الحلم واستند فى ذلك الى الفرمانات السلطانية « **يحترمونها** اذا وافقت أغراضهم » وجعل نوبار باشا ديوانا له . نوبار باشا لا يقصر فى هذا العمل ولا يألو جهدا فى ابلاغه الى نهايته . نوبار باشا رجل لا هو مسلم فيغار على دينه ولا هو مصرى فيخشى على وطنه ولا هو عربى فتأخذه النعرة على جنسه ، وبهذا الطريق ينال سلطة فى القطر المصرى مدة لا تنقص عن الباقى من عمره ويكون فى أمان من العزل تحت ظل الحكومة الانكليزية .

الى أن قالت :

هذا هو اللورد نورثبروك الذى تريد حكومة انكلترا أن ترمى به مصر . وهذا هو الاصلاح الذى يقصد اجراءه فيها . لكن رجاءنا فى المسلمين وأملنا فى المصريين وقوة ايماننا بوعود الله وصدق النبأ عما تكنه الحوادث المصرية وتألب الدول على معاكسة الحكومة الانكليزية . كل هذا يبشرنا بخيبة هذا الغادر فى قصده . والله لا يهدى كيد الخائنين .

وفى عدد ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ (٢١ ذى القعدة سنة ١٣٠١) كلمة جاء فيها تحت عنوان :

(تعظيم توفيق باشا نورثبروك)

« ورد خبر من القاهرة بوصول اللورد نورثبروك اليها .

وحصلت الملاقاة الرسمية بينه وبين توفيق باشا وقدم اليه رقيما من اللورد (غرانفيل) يؤذن ان اللورد نورثبروك هو الوكيل الأعلى للحكومة الانكليزية فى القطر المصرى ويطلب من الحكومة المصرية أن تساعده فى حل المشاكل الحالية خصوصا المسائل المالية . فأظهر توفيق باشا غاية المسرة من تعيينه بهذه الوظيفة وأكد له خلوص الوداد وكمال الرضا بجميع مطالبه !

« يظهر أن توفيق سر بقدوم اللورد (نورثبروك) وان لم يكن بينه وبينه معرفة خصوصية ولا له سابقة علم بأحواله ولا بما يريد أن يعمله فى بلاده . هذا يمكن ولكن ليت شعرى ماذا يجنى هـــذا الخديو الشاب من مراضاة هذا المخادع وماذا يصيبه من ســهام حيله ؟ بينا فى بعض الأعداد الماضية بعض صفات هذا اللورد وطرفا من اعماله فى الهند . ونذكر الآن عملا آخر منها :

طلب وهو حكمدار الهند أن يمكن السلطة الانكليزية من مملكة (كابورتال) وهى مملكة واسعة تتاخم لاهور و (بتيالة) فادعى على مهراجتها (ملكها) أنه مجنون وهو فى رشاد عقله واعتدال مزاجه وخلعه بهذه الدعوى وسجنه فى (بكسو) حتى مات حتف أنفــه وقيل بالسم . وكان هذا الملك المخلوع ابن « راندهيرســنك » . ونصب بدله ولدا صغيرا من أولاد كاتب من كتاب ذلك الملك ليعد المملكة بذلك للدخول فى حوزة الحكومة الانكليزية .

« كانت الحكومة الانجليزية تركت لبعض الرجوات المخلوعين غابات صغيرة من بقايا أملاكهم للصيد . فكان أولئـــك المساكين يسلون انفسهم على ضياع ممالكهم بصرف بعض الزمان فيها . فلما جاء اللورد (نورثبروك) حاكما فى الهنـــد رآها كثيرة عليهم فنزعها من أيديهم وحرمهم من هذه المنفعة الزهيدة . هذا اللورد هو الذى طلب (سميع الله خان) الدهرى ليكون معينا له فى مصر على ارضاء المصريين بحكومة الانكليز . وهو الذى أعطى المبـــالغ الوافرة للمعلم (بالمر) لينشرها بين العرب حتى يثوروا أيام الحرب

المصرية ، كما أخبرنا الثقة الصادق من لوندرة ، ولكن العرب قتلوا رسوله وشنق به أشخاص فى مصر بلا جرم . هذا اللورد هو الذى يبتهج توفيق باشا بقدومه . صان الله الأراضى المصرية المقدسة من شر هذا المحتال » .

سنة الله فى الأمم

ونشرت فى عدد ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤ (٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١) مقالة تحت عنوان (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

« تلك آيات الكتاب الحكيم ، تهدى الى الحق والى صراط مستقيم ، ولا يرتاب فيها الا القوم الضالون » .

هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعد ؟ هل كذب الله رسله ؟ هل ودع أنبياءه وقلاهم ؟ هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال ؟ نعوذ بالله !!

هل أنزل الآيات البينات لغوا وعبثا ؟ هل افترت عليه رسله كذبا ؟ هل اختلفوا عليه افكا ؟ هل خاطب الله عبيده برموز لا يفهمونها واشارات لا يدركونها ؟ هل دعاهم اليه بما لا يعقلون ؟ نستغفر الله !

أليس قد أنزل القرآن عربيا غير ذى عوج ، وفصل فيه كل أمر ، وأودعه تبيانا لكل شىء ؟ تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا . هو الصادق فى وعده ووعيده ، ما اتخذ رسولا كذابا ، ولا أتى شيئا عبثا ، وما هدانا الا سبيل الرشاد ، ولا تبديل لآياته ، تزول السموات والأرض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) .

« يقول الله (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) ويقول (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)

ويقول (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) ويقول (ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا) .

هذا ما وعد الله فى محكم الآيات مما لا يقبل تأويلا ، ولا ينال هذه الآيات بالتأويل ، الا من ضل عن السبيل ، ورام تحريف الكلم عن مواضعه . هذا عهده الى تلك الأمة المرحومة ، ولن يخلف الله عهده وعدها بالنصر والعزة وعلو الكلمة ، ومهد لها سبيل ما وعدها الى يوم القيامة ، وما جعل الله لمجدها أمدا ، ولا لعزتها حدا .

« هذه أمة أنشأها الله عن قلة ، ورفع شأنها الى ذروة العلى ، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات ، ودكت لعظمتها عوالى الراسيات ، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات ، وذابت للرعب منها أعشار القلوب ، هال ظهورها الهائل كل نفس ، وتحير فى سببه كل عقل ، واهتدى الى السبب أهل الحق فقالوا : قوم كانوا مع الله فكان الله معهم ، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده . هذه أمة كانت فى نشأتها فاقدة الذخائر ، معوزة من الأسلحة وعدد القتال ، فاخترقت صفوف الأمم واختطت ديارها ، ولا دفعتها أبراج المجوس وخنادقهم ، ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلهم ، ولا عاقها صعوبة المسالك ، ولا أثر فى همتها اختلاف الأهوية ، ولا فعل فى نفوسها غزارة الثروة عند من سواها ، ولا راعها جلالة ملوكهم ، وقدم بيوتهم ، ولا تنوع صنائعهم ، ولا سعة دائرة فنونهم ، ولا عاق سيرها أحكام القوانين ولا تنظيم الشرائع ، ولا تقلب غيرها من الأمم فى فنون السياسة .

كانت تطرق ديار القوم فيحتقرون أمرها ، ويستهينون بها . وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تزعزع أركان تلك الدول العظيمة وتمحو أسماءها من لوح المجد . وما كان يختلج بصدر أن هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة وتمكن فى نفوسها عقائد دينها ، وتخضعها لأوامرها وعاداتها وشرائعها ، لكن كان كل ذلك . ونالت تلك الأمة المرحومة على ضعتها مالم تنله أمة سواها .

نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجــدا فى الدنيا ، وسعادة فى الآخرة .

« هذه الأمة يبلغ عددها اليوم زهاء مائتى مليون من النفوس ، واراضيها آخذة من المحيط الأتلانتيكى الى احشاء بلاد الصين . تربة طيبة ، ومنابت خصبة ، وديار رحبة ، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة ، وأموالها مسلوبة ، يتغلب الأجانب على شعوب هذه الأمة شعبا شعبا ، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة ، ولم يبق لها كلمة تسمع ، ولا أمر يطاع ، حتى ان الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم فى ملمة ، ويمسون فى كربة مدلهمة ، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التى تلم بهم ، وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم .

« هذه هى الأمة التى كانت الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد وهن صاغرات ، استبقاء لحياتهن ، وملوكها فى هذه الأيام يرون بقاءهم فى التزلف الى تلك الدول الأجنبية . يا للمصيبة ويا للرزية !!.

« اليس هذا بخطب جلل ، اليس هذا ببلاء نزل .

ما سبب هذا الهبوط ، وما علة هذا الانحطاط ؟ هل نسىء الظن بالعهود الالهية ؟ معاذ الله ! هل نستيئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا ؟ نعوذ بالله !

هل نرتاب فى وعده بنصرنا بعد ما اكده لنا ؟ حاشاه ســبحانه لا كان شىء من ذلك ولن يكون ، فعلينا أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا الا عليها ، ان الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سننا متبعة ثم قال (ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

« أرشــدنا الله سبحانه فى محكم آياته الى ان الأمم ما سقطت من عرش عزها ، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود ، الا بعــد نكوبها عن تلك السنن التى سنها الله على أساس الحكمة البالغة . ان الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وامن

وراحة حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر ، واشراق البصيرة ، والاعتبار بأفعال الله فى الأمم السابقة ، والتدبر فى أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ثم الفناء ، لعدولهم عن سنة العدل ، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة ، حادوا عن الاستقامة فى الرأى ، والصدق فى القول ، والسلامة فى الصدر ، والعفة عن الشهوات ، والحمية على الحق ، والقيام بنصره ، والتعاون على حمايته ، خذلوا العدل ولم يجمعوا هممهم على اعلاء كلمتهم ، واتبعوا الأهواء الباطلة ، وانكبوا على الشهوات الفانية وأتوا عظائم المنكرات ، خارت عزائمهم ، فشحوا ببذل مهجهم فى حفظ السنن العادلة ، واختاروا الحياة فى الباطل على الموت فى نصرة الحق ، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين .

« هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها فى التحلى بالفضائل التى أشرنا اليها ، وجعل هلاكها ودمارها فى التخلى عنها . سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم ، ولا تتبدل بتبدل الأجيال ، كسنته تعالى فى الخلق والايجاد ، وتقدير الأرزاق ، وتحديد الآجال .

« علينا أن نرجع الى قلوبنا ، ونمتحن مداركنا ، ونسبر أخلاقنا ، ونلاحظ مسالك سيرنا ، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالايمان ؟ هل نحن تقتفى أثر السلف الصالح ؟ هل غير الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا ، وخالف فينا حكمه ، وبدل فى أمرنا سنته ؟ حاشاه وتعالى عما يصفون ، بل صدقنا الله وعده ، حتى اذا فشلنا وتنازعنا فى الأمر وعصيناه من بعد ما أدى أسلافنا ما يحبون ، وأعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئا ، فبدل عزنا بالذل ، وسمونا بالانحطاط ، وغنانا بالفقر ، وسيادتنا بالعبودية .

نبذنا أوامر الله ظهريا ، وتخاذلنا عن نصره ، فجازانا بسوء أعمالنا ، ولم يبق لنا سبيل الى النجاة سوى التوبة والانابة اليه .

كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا

ويستذلون أهلها ، ويسفكون دماء الأبرياء من اخواننا ، ولا نرى فى أحد منا حراكا ؟

« هذا العدد الوافر والسواد الأعظم من هذه الملة لا يبذلون فى الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئا من فضول أموالهم ، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، كل واحد منهم يود لو يعيش ألف سنة ، وان كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة ، ومسكنه الهوان .

تفرقت كلمتنا شرقا وغربا ، وكاد يقطع ما بيننا ، لا يحن أخ لأخيه ، ولا يهتم جار بشأن جاره ، ولا يرقب أحدنا فى الآخر الا ولا ذمة ، ولا نحترم شعائر ديننا ، ولا ندافع عن حوزته ، ولا نعززه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا .

« أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة ولا يمس سواد القلوب ؟ هل يرضى الله منهم بأن يعبدوه على حرف ؟ فان أصابهم خير اطمأنوا به ، وان أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة ؟ هل ظنوا أن لا يبتلى الله ما فى صدورهم ، ولا يمحص ما فى قلوبهم ؟ ألا يعلمون ان الله لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ؟ هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره واعلاء كلمته لا يبخلون فى سبيله بحال ، ولا يشحون بنفس ؟ فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمنا وهو لم يخط خطوة فى سبيل الايمان ، لا بماله ولا بروحه ؟

« انما المؤمنون هم الذين اذا قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك الا ايمانا وثباتا ، ويقولون فى اقدامهم : حسبنا الله ونعم الوكيل . كيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقتول فى سبيل الله حى يرزق عند ربه ؟ ممتع بالسعادة الأبدية فى نعمة من الله ورضوان كيف يخاف مؤمن من غير الله ، والله يقول (فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) .

« فلينظر كل الى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان ، وليمتحن كل واحد قلبه قبل أن يأتى يوم لا تنفع خلة ولا شفاعة ، وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين ، وما جعله من خصائص الايمان ، فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا .

يا سبحان الله ، ان هذه أمتنا أمة واحدة ، والعمل فى صيانتها من الأعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء . يثبت ذلك نص الكتاب العزيز ، واجماع الأمة سلفا وخلفا ، فما لنا نرى الأجانب يصولون على البلاد الاسلامية صولة بعد صولة ، ويستولون عليها دولة بعد دولة ، والمتسمون بسمة الايمان آهلون بكل أرض ، متمكنون بكل قطر ، ولا تأخذهم على الدين نعرة ، ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية ؟ الا يا أهل القرآن لستم على شىء حتى تقيموا القرآن ، وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهى ، وتتخذوه اماما لكم فى جميع أعمالكم مع مراعاة الحكم فى العمل كما كان سلفكم الصالح .

الا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقرؤا منه (فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت) .

الا تعلمون فيمن نزلته هذه الآية ؟ نزلت فى وصف من لا ايمان لهم . هل يسر مؤمنا أن يتناوله هذا الوصف المشار اليه بالآية الكريمة ، أو غر كثير من المدعين للايمان ما زين لهم من سوء أعمالهم ، وما حسنته لديهم أهواؤهم ؟ (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

« اقول ولا أخشى نكيرا : لا يمس الايمان قلب شخص الا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه فى سبيل الايمان ، لا يراعى فى ذلك عذرا ولا تعلة ، وكل اعتذار فى العقود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله .

وها نحن نرى الانكليز دخلوا أرض مصر وأخذوا يجولون فى أطرافها ويمهدون السبل لامتلاكها . ومع ذلك لا نرى من أهاها اقداما فعليا لمصادمة القوة الانكليزية . مع ان كل واحد منهم يزعم نفسه فى أعلى درجات الايمان . ويزيد المتعجب عجبا ان مصر يسكنها من المسلمين اقوام مختلفو الشعوب والأجناس . الا يوجد «حلبى» يكون آية لما كان عليه أسلافنا ودليلا على ان تلك الروح الطيبة لم تنزع منا وان الغيرة والحمية وشهامة الايمان لم يزل بها مقام من نفوسنا . لا ريب عندنا ان اية حركة جزئية كانت أو كلية فى اى قطر من الأقطار التى لها تعلق بحكومة الانكليز يوجب احباط أعمالها وتنكيس أعلامها وخيبة آمالها .

أما لو فاتت المسلمين هذه الربكة التى يعانى الانكليز ما يعانون فيها فليستروا وجوههم بقناع الخجل ولا يغشوا انفسهم بدعوى الايمان واتباع القرآن فانما هى الفاظ على طرف اللسان لا تحكى عن عقيدة فى الجنان .

« مع هذا كله نقول : ان الخير فى هذه الأمة الى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوة ، وهذا الانحراف الذى نراه اليوم نرجو أن يكون عارضا يزول ، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأحيوا روح القرآن ، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة ، واستلفتوهم الى عهد الله الذى لا يخلف . لرأيت الحق يسمو والباطل يسفل ، ولرأيت نورا يبهر الأبصار ، وأعمالا تحار فيها الأفكار . وان الحركة التى نحسـها من نفوس المسلمين فى أغلب الأقطار هذه الأيام تبشرنا بأن الله قد أعد النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين ، ويوحد بها بين جميع الموحدين ، ونرجو أن يكون العمل قريبا ، فان فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم ، صحت لهم الأوبة ، ونصحت منهم التوبة ، وعفا الله عنهم ، والله ذو فضل على المؤمنين ، فعلى العلماء أن يسارعوا الى هـذا الخير ، وهو الخير كله : جمع كلمة المسلمين ، والفضل كل الفضل

لمن يبدأ منهم بالعمل (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) .

الوهم

من مقالة نشرت فى العدد نفسه :

« ألا قاتل الله الوهم . الوهم طورا يكون مرآة المزعجات . ومجلى المفزعات . وطورا يكون ممثلا للمسرات حاكيا للمنعشات . وهو فى جميع أطواره حجاب الحقيقة وغشاء على عين البصيرة . لكن له سلطان على الارادة وحكم على العزيمة . فهو مجلبة الشر ومنفاة الخير .

الوهم يمثل الضعيف قويا والقريب بعيدا والمأمن مخافة والموئل مهلكا . الوهم يذهل الواهم عن نفسه ويصرفه عن حسه . يمثل الموجود معدوما والمعدوم موجودا . الوهم فى كون غير موجود وعالم غير مشهود يخبط فيه خبط المصروع . لا يدرى ماذا أدركه وماذا تركه . الوهم روح خبيث يلابس النفس الانسانية وهى فى ظلام الجهل . اذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام وتسلطت على الارادات فتقود الواهمين الى بيداء الضلالة . فيخبطون فى مجاهل لا يهتدون الى سبيل ولا يستقيمون على طريق .

« كان الانكليز أمة مجتمعة القوى مستكملة العدد مستعدة للفتوحات . وذلك فى زمان بليت فيه الأمم الشرقية بتفريق الكلمة واختلاف الأهواء وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم . فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الاختراع سحرا وكرامة . فانتهز الانكليز تلك الفرصة واندفعوا الى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه . وما دهموا سكانه الا ببعض غرائب الصنعة الأوروبية التى أثارت فيهم خواطر الأوهام . ثم زاد الوهم قوة ما نصبه الانكليز من حبائل الحيلة والمكر . حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم

عما فى أيديهم بل اخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم . فسلبوا أموالهم وانتزعوا منهم أراضيهم واجلوهم عن املاكهم . فاستغنت الأمةالانكليزية بما سلبت . وأثرتبما نهبت . وترفهتبما ملكت . واليوم تراها حاكمة على أقطار واسـعة وأنحاء شاسعة وقواها منقسمة على تلك الأقطـار متوزعة فيها . فلا ترى فى كل ايالة من ايالاتها الشرقية الا نزرا من العدد والعـدد . وهى فى جميعها ضعيفة واهنة لا تستطيع ذودا ولا دفاعا . وان اخف حركة فى تلك الأنحاء توجب زعزعة فى تلك القوة أو هدمها بالمرة . وقد ظهر هذا الأمر على انفس الأمة الانكليزية . فهى دائما فى رجفة على أملاكها فى خيفة من تمزقها وضياعها . تتوجس من كل حادثة فى العالم وتقلق لأية حركة تحدث فى الوجود . وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زلزلة فى قوى الانكليز المتوزعة فى الأنحاء الضعيفة فى جميع الأرجاء .

« ومع هـــذا كله نرى الأمر لم يزل خفيا على الشرقيين محجوبا عنهم بحجاب الوهم .

يمثل الوهم لكل شرقى ان الانكليز على ما كانوا عليه فى ماضى زمانهم . فمثل الشرقيين مع الانكليز كمثل مار فى مغـارة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقه فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سبعا ضاريا ومفترسا قويا . فينكب عن الطريق وهما وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه . يرتعد ويسقط ويموت خوفا أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتشتبه عليه مسالك الوصول الى غايته . وربما صادف مهلكة فى ضلاله ومتلفة فى غيه . بل لا نخطىء ان قلنا ان هـذا الوهم كان متسلطا على الغربيين كما هو متسلط على الشرقيين . فالأوروبيون كانوا ينظرون الى انكلترا فى أملاكهـا البعيدة كما ينظرون اليها فى جزائر بريطانيا . وكانت حكومة انكلترا متحصنة ممتنعة فى هذه القبة الوهمية متربعة على عرش هذه العظمة الخيالية . يحس الانكليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائما

فى ستره ولا ستار أكثف من الوهم . ولهذا نراهم فى كل حادثة يجلبون ويصيحون ويزأرون ليثيروا بالضوضاء هواجس الأوهام فتحول أنظار الناظرين وتفشى بصائر المستبصرين فتحول دون استطلاع الحقيقة . والا فقليل من الالتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الانكليز .

« ذهب الانكليز الى الهند فى قوى مجتمعة . وتسابقوا مع الفرنساويين وهولاندا والبرتغال فى مدن الأراضى الهندية الواسعة . فحازوا فى هذه المباراة قصب السبق بما امتازوا به من الدهاء والمكر . وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذلك العهد . أو طيب قلوبهم . فمالت النفوس الى الانكليز اغترارا وتغلبوا على تلك البلاد واستقلوا بأمرها شيئا فشيئا وما أبقوا لغيرهم من الدول الا مضائق من الأرض لا تذكر . وأول ما استمالوا به القلوب السالمة قولهم اننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولاندا والبرتغال) فانها تريد التسلط على ممالكهم . أما نحن (الانكليز) فلا نريد الا تحريركم واستقلالكم .

ثم انا نرى للانكليز الآن فى الهند الأصلية والهند الصينية والبرمان (١) سلطة على نحو مائتين وخمسين مليونا من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الانكليزية طالب للتخلص منها يفضل أية سلطة سواها ظالمة كانت أو عادلة كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم انه لا توجد حكومة فى العالم تبلغ فى ظلمها مبلغ الانكليز ولا تصل الى ما وصل اليه الانكليز فى الكبرياء والجبروت . ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها وشدة ميلهم للتخلص من تلك السلطة الظالمة لا يوجد فيهم قوة لقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبغوضة

---

(١) بورما .

الا خمسون ألف جندى انكليزى . مع انه يوجد من الممالك الصغيرة التى لها نوع من الاستقلال وتخشى زوال ما بقى لها ما لو جمعت قواها لبلغت ازيد من ثلاثمائة الف جندى . هذا فضلا عمن يمكنه حمل السلاح من أهالى البلاد التى دخلت فى الحكومة الانكليزية وزال استقلالها بالمرة . فلولا الوهم الذى استولى على المشاعر والحواس حتى اذهلها عما بين يديها بل عما هو موجــود فيها ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفائقة القوة فى قبضة قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل والهوان . ولو لمح أولئك المساكين انفسهم لمحة اعتبار وادركوا ما أتاهم الله من القوة الطبيعية ونظروا الى ضعف الانكليز فى الحالة الحاضرة لرأوا موئل الخـــلاص بين أيديهم وملجأ النجاة تحت أرجلهم وعلموا أن استقلالهم لأنفسهم وبلادهم لا يحتاج الى تجشم تعب ولا تكلف مشــقة . ولا يدعو الى بذل أموال وافرة ولا سفك دماء غزيرة .

« يوجد فى الدول الأوروبية من يهاب دولة الانكليز اعتبارا لما فى سلطتها من الممالك الواسعة والأمم العظيمة مما لم يبلغ عده رعية دولة من الدول ويقيس شأنها وقوتها فى تلك الأطراف القاصية بما يراه فى جزائر بريطانيا ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوى قدرتها عليه فى بريطانيا أو تقترب منها . ولم يلتفت الى أن جسم الانكليز قد مد فى الطول والعرض الى حد لو حصلت فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع) . تفرقت قواهم فى بسيط الأرض حتى لم تبق لهم فى موضع قوة . ورعاياهم فى كل صقع فى ضجر لا مزيد عليــــه . يترقبون فى كل آن زحفا من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين .

لو التفتت تلك الدولة التى تهاب انكلترا الى حقيقة الأمر لما احتاجت فى معارضتها ومنازلتها الى تدبر ومشورة . فقد وصل الأمر من الظهور الى حـــد لا يحتاج الى دقة الفكر لولا حجاب الوهم . قاتل الله الوهم » .

التنبيه الى مقاصـــد الانكليز

كتبت فى آخر عدد ظهر من العروة الوثقى (العدد الثامن عشر) الصادر فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ (٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١) مقالة بعنوان (عماء بعض النــاس فى مصر أو تعاميهم عن مقاصد الانجليز) وجهت فيها الخطاب الى بعض من خدعوا فى وعودهم . قالت ضمن ما قالت :

« ظهرت مقاصد الانجليز وانكشفت مضمراتهم . وان كان بعض الغفل فى تلك البلاد المنكودة الحظ (لا نريد نوبار باشا فانه ضارب فى طريقه ذاهب فى مقاصده) يتزلف للانجايز بكل مايمكنه لينال بهم ما أشرنا اليــه مرارا ، تســول لهم أنفسهم اما جهــلا واما طمعا . أن يميلوا مع ريح الحكومة الانجليزية لأنهم يظنون أنها لا تقصد بالبلاد المصرية الا خيرا. فاذا فاض الخير فى البلاد وشملت الراحة جميع أنحائها انجلت العساكر الانجليزية عنها كما جاءت اليها ورجعت الى بلادهم .

« والعجب من هــؤلاء المغرورين كيف لم يعتبروا بحركات اللورد نورثبروك يتجول فى البلاد المصرية ويستدعى اليــه العمد والمشايخ ويذاكرهم فيما يريد طورا بالسر وآخر بالعلن ويجاذبهم أطراف الأحاديث فيما يمكن أن يتخذ وسيلة لتمكين حكومته من الولاية على تلك البلاد . أما كان يكفى هذا السير لدرك الحقيقة ؟ فيم يعلل الغافلون أنفسهم وأى أوهام تخيــل لهم ما يظنون ؟ ألم يكشف الغطاء عن نية السوء سؤال اللورد نورثبورك للشيخ العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر (١) ومفتى القاهرة حيث افتتح الكلام معه بقوله : ماذا تعلم من أفكار الأهالى لو أردنا (نحن الانكليز أن نديم الاقامة فى البلاد ؟ فلو لم يكن لدولة الانكليز عزم على

(١) هو الشيخ محمد العباسى المهــدى شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية صاحب الفتــاوى المهدية .

تملك وادى النيل فكيف كان هذا السياسى الداهية يبتدر شيخا من أجل المشايخ وأعلاهم مقاما فى القطر المصرى بهذا السؤال مع ان أقل ما فيه اثارة الظنون واحداث الريب ؟! .

أجابه حضرة الشيخ بما يفيد نفرة القلوب من بقاء الانكليز فى معاهد مصر . فاستدرك اللورد ما فرط منه بقوله انا لا نريد البقاء . ولكن كان استدراكه مناقضا لما دل عليه أول سؤاله وما الانكار الا خديعة لا تخفى على الصبيان فضلا عن الراشدين . يريد اللورد بهذه المحاولات أن يستكنه مضمرات القلوب ليتبين له ضروب السير الى ما يقصد من التسلط على أرض مصر حتى اذا سد فى وجهه باب حاول قرع باب آخر .

« أما آن لهؤلاء المخدوعين أن يرجعوا لأنفسهم ويمدوا نظر الانتقاد لحركات هذا اللورد . أى اصلاح يقصده اللورد من طرد العساكر المصرية والغاء كل ما يسمى جندا مصريا ومحو هذا الاسم من دفاتر الحكومة المصرية ؟ ان اللورد يلح بكل اهتمام على استبدال الجند المصرى بأعوان الشرطة والخفر المسمى بالضابطة . ما هذا الاهتمام ان لم يكن من قصده تمهيد الطرق للتسلط التام على مصير ؟ هذا سبيل سلكه الانكليز فى جميع فتوحاتهم كما نبهنا عليه مرارا وأن هذا الكيس الداهية الانكليزى لا يحيد عنه بعد ما سلكه أسلافه قبله وقفاهم عليه عندما كان حكمدار الهند وجنوا ثماره . يجتهد بما فى وسعه لطرد العساكر المصرية وابدالهم بالضابطة ليقترح بعد أيام تبديل رجال الضابطة المصريين باقوام من الجيوش الانكليزية البريطانية أو الهندية تعللا بأخلاق المصريين وعدم أهليتهم للخدمة النظامية وعجزهم عن القيام بوظائف الضبط وصيانة الراحة . وبذلك يجرد الحكومة من جميع قواها وتكون السلطة الانكليزية سائدة فى جميع الجهات بلا معارض لها من طرف الحكومة المحلية » .

احتجاب العروة الوثقى

احتجبت جريدة العروة الوثقى بعد صدور العدد الثامن عشر فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ (٢٦ ذى الحجة لسنة ١٣٠) فكان هذا العدد آخر ما صدر فيها . وكان أول عدد قد ظهر فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ . فكأنها أستمرت فى الظهور سبعة أشهر .

ويبدو أن تهاون الشرقيين فى الاقبال عليها وامدادها بالعون والتأييد كان السبب الأول لاحتجابها . وكان لمحاربة الانجليز أثر كبير فى احتجابها . فقد منعت دخولها الى مصر والهند كما سلف القول . فالأمم الشرقية والسياسة البريطانية يتحملان معا تبعة وقف هذه الصحيفة التى كانت أقوى صرخة أيقظت النائمين ونبهت الغافلين . ومع قصر المدة التىعاشتها . فانهاعملت فى بعث الشرق أكثر مما عملت صحف أخرى فى عدة سنين . ولقد ظل أثرها بعد احتجابها باقيا مدويا فى الأذهان كلما توالت الأيام والأعوام . ولا ريب أن للحكيم الأفغانى والأستاذ الامام الفضل الأكبر فيما بلغته هذه الصحيفة من المكانة الرفيعة والأثر الخالد فى نفوس الشرقيين جميعا .

انفصل الحكيمان

بعد أن توقفت جريدة العروة الوثقى عن الصدور انفصل الحكيمان وعاد الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الى بيروت ثم الى مصر سنة ١٨٨٩ (١٣٠٦ هـ) . وانقطع عن الكفاح السياسى وانصرف الى الاصلاح الدينى والاجتماعى . أما جمال الدين فاستمر على الكفاح السياسى اذ أنه يراه الأساس لنهضة الشرق .

ويبدو أن اختلاف الحكيمين فى هذا الصدد قد بدأ فى باريس فقد أشار الأستاذ الامام على جمال الدين أن يذهبا الى مكان بعيد غير خاضع لسكان دولة تعرقل سيرهما . ثم ينشئان فيه مدرسة

للزعماء ويختاران لها التلاميذ من نجباء الناشئين من الأقطـــار الاسلامية . ومن يتوسمان فيهم الخير . ثم يربيانهم على منهج قويم يختارانه . ويعدانهم للزعامة والاصلاح . ولكن جمال الدين لم يقبل هذا الرأى وعده تراجعا عن الكفاح السياسى وتثبيطا للعزيمة . ورجح رأى جمال الدين مؤقتا فأصدر الحكيمان جريدة العروة الوثقى . وبدأ من أسلوب الجريدة أن الأستاذ الامام اقتنع برأى أستاذه . على أنه حين عاد الى مصر سنة ١٨٨٩ رجع الى فكرته التى أبداها فى باريس وانقطع الى الاصلاح الاجتماعى والدينى . وبلغ فيه الذروة . ولقد قلت فى هذا الصدد سنة ١٩٢٧ فى كتابى عن (الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى) « ونقطة الضعف فى شخصية (الأستاذ الامام) هى تخلفـــه عن الكفاح السياسى . واختلافه فى هذه الناحية مع أستاذه جمال الدين الأفغانى . ولقد بدأ انقطاعه عنه منذ عودته الى مصر سنة ١٨٨٩ . فترك أستاذه يعانى متاعب الكفاح السياسى وآلامه ومرارته وكان من قبل عضده وساعده الأيمن . وانك لتلمح تراخى الصلات بينهما ـ حتى الصلات الشخصية ـ منذ أن عاد الى مصر حتى وفاة السيد جمال الدين من قراءة منتخبات الأستاذ الامام (١) فانك لا تجد فيها رســـالة واحدة كتبها الى السيد فى محنته ومنفاه . بل ان جمال الدين توفى سنة ١٨٩٧ فلا تجد للأستاذ الامام كلمة فى رثاء أستاذه الروحى والفلسفى وزميل جهاده فى (العروة الوثقى) . وهذه الناحية هى أثر من آثار الاحتلال »(٢) .

جمــال الدين وريــنــان

جرت لجمال الدين فى باريس أبحــاث مع الفيلسوف الفرنسى أرنست رينـــان Irnest Renane فى العلم والاســلام . فقــد القى رينان فى (السوربون) محاضرة فى هذا الموضوع قال فيها : أن

(١) تاريخ الأستاذ الامام للسيد محمد رشـــيد رضا الجزء الثانى .
(٢) الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ص ٥٤٢ الطبعة الأولى .

انتاج الأمم غير العربية أكثر من انتاج الأمم العربية . وان التمدن أكثره من انتاج الفرس وغيرهم دون العرب . وزعم أن الاسلام لا يشجع على العلم والفلسفة . والبحث الحر . وان من اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو أحرقت كتبه . أو كان فى حماية خليفة أو أمير من المؤمنين . وقد نشرت هذه المحاضرة فى جريدة الديبا الفرنسية Journal des-Dêbats وكان ممن رد عليه رئيس البعثة المصرية بفرنسا حينذاك .

ورد جمال الدين على هذه المحاضرة . ونشر رده فى جريدة الديبا . وخلاصة رده : أن ما ذكره رينان عن الاسلام ليس هو من طبيعته ونتيجة تعاليمه . بل من عمل بعض من اعتنقوا الاسلام فى بعض العهود . وان الاضطهاد الذى قال عنه رينان قد وقع مثله فى الأديان الأخرى . فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية لم يتركوا هذا السلاح حتى الآن . وأما عن قوله ان الاسلام لا يشجع العلم . فان الكل يعلم أن الشعب العربى خرج من حال البداوة التى كان عليها قبل الاسلام وأخذ يسير فى التقدم العلمى والفكرى ويسير فى هذا المجال بسرعة لا تعادلها الا سرعة فتوحاته السياسية . فتقدمت العلوم تقدما مدهشا بين العرب وفى كل البلاد التى انضمت لسيادتهم .

وقد أكبر رينان هذا الرد . والتقى به وتباحث واياه فى الموضوع وأعجب رينان بعبقريته وسعة علمه وقوة حجته وقال عنه « كنت أتمثل أمامى عندما كنت أخاطبه ابن سينا أو ابن رشد . أو واحدا من أساطين الحكمة الشرقيين » وقال ان جمال الدين الأفغانى خير دليل يمكن أن نسوقه على النظرية التى طالما أعلناها وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس .

الفصل السادس

فى فارس وروسيا وتركيا

أخذ جمال الدين ينتقل بين باريس ولندن الى أوائل فبراير سنة ١٨٨٦ (جمادى الأولى سنة ١٣٠٣) .

فى فارس

ثم استدعاه ناصر الدين شاه فارس فلبى الدعوة وقصد الى طهران فاستقبله الشاه بصدر رحب . وأثنى على فضله وجعله مستشاره الخاص فى اصلاح شئون بلاده . فكان له نعم المرشد الأمين . وكانت لهجته صريحة كعادته فى نصح الشاه . وأشار عليه بتغيير كل شأن معيب من شئون الحكومة . وقال بضرورة اشتراك الأمة فى الحكم . على أن الشاه لم تألف نفسه اقامة الشورى فى بلاده . فتنكر لجمال الدين اذ رآه ميالا الى اقامة النظم الدستورية. ولما أدرك جمال الدين تغير الشاه استأذنه فى السفر فأذن له .

فى روسيا

فذهب الى روسيا وزار عواصمها . فاستقبله الخاصة بالتجلة والاحترام لما سمعوه من مكانته . وكتب عدة مقالات فى الصحف الروسية وكانت لهجته معبرة فى اظهار دسائس السياسة الانجليزية .

وقد دعاه القيصر لمقابلته . واحتفى به كثيرا . على أن القيصر فى خلال حديثه معه سأله عن سبب اختلافه مع الشاه . فذكر له

رأيه فى الحكومة الشورية وأن الشاه لا يشاطره رأيه فيها وينفر منها . ولم يكن القيصر أيضا يقبل هذا النوع من الحكم فقال : « انى أرى الحق فى جانب الشاه اذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ؟ » .

فلم يسكت جمال الدين على كلام القيصر . وأجابه فى جرأة وفصاحة : « أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون الملايين من رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعداء يترقبون الفرص ويكتمون فى الصدور سموم الحقد والانتقام » . فبهت القيصر من هذا الرد . وعلت وجهه علامة الغضب وقطب حاجبيه . ولم يطل الحديث بعد ذلك بل قام من مجلسه ايذانا بانتهاء المقابلة . وودع جمال الدين بغير الشكل الذى استقبله به . اذ كان وداعا فاترا ثم أوعز الى كبار رجال حاشيته أن يسرعوا متلطفين لاخراجه من روسيا .

فى فارس مرة أخرى

ترك جمال الدين روسيا . وأخذ يتجول فى أوروبا . ولما كان معرض باريس العام سنة ١٨٨٩ رجع جمال الدين اليها ، وفى عودته منها التقى بالشاه فى ميونخ عاصمة بافاريا ، فاعتذر له عما فرط منه ودعاه الى صحبته اذ كان يرغب فى الانتفاع بعلمه وتجاريبه ، فأجاب الدعوة ، وسار معه الى فارس ، وأقام فى طهران ، فحفه علماء فارس وأمراؤها وأعيانها بالرعاية والاجلال .

واستعان به الشاه على اصلاح أحوال المملكة وسن لها القوانين الكفيلة باصلاح شئونها . فعمل بجد فيما عهد اليه ووضع مشروع دستور لفارس يجعلها ملكية دستورية ، ولكنه استهدف لسخط أصحاب النفوذ فى الحكومة ، وخاصة الصدر الأعظم ، فوشوا به عند الشاه ، وأسر اليه الصدر الأعظم أن هذه القوانين وخاصة الدستور تؤول الى انتزاع السلطة من يده ، فأثرت الوشايات فى نفس الشاه ، وبدأ يتنكر للسيد ، ولما اطلع على مشروع الدستور

هاله الأمر حين رأى أن حكمه سيكون مقيدا وأن المجلس النيابى الذى يفرضه الدستور سيجعل الأمة أوسع سلطانا من الشاه . فقال لجمال الدين : « أيصح أن أكون يا حضرة السيد وأنا ملك ملوك الفرس (شاهنشاه) كأحد أفراد الفلاحين ؟ » فقال جمال الدين : « اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستورى أعظم وأنفذ وأثبت مما هى الآن . واسمح لاخلاصي أن أؤديه صريحا قبل فوات وقته . لا شك يا عظمة الشاه أنك رأيت وقرأت عن أمة أستطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك . ولكن هل رأيت ملكا عاش بدون أمة ورعية ؟ » .

جاء هذا الحديث مصدقا لما وشى به الصدر الأعظم لدى الشاه فنفر من جمال الدين نفورا شديدا وأحس بهذا التعبير فى موقف الشاه حياله ، فاستأذن فى المسير الى المقام المعروف (بشاه عبد العظيم) على بعد عشرين كيلومترا من طهران ، فأذن له ، فوافاه به جم غفير من العلماء والوجهاء من أنصاره فى دعوة الاصلاح ، فازدادت مكانته فى البلاد ، وتخوف الشاه عاقبة ذلك على سلطانه ، فاعتزم الاساءة اليه ، ووجه الى (شاه عبد العظيم) خمسمائة فارس قبضوا عليه ، وكان مريضا ، فانتزعوه من فراشه ، واعتقلوه ، وساقه خمسون منهم الى حدود المملكة العثمانية ، فنزل بالبصرة ، فعظم ذلك على مريديه ، واشتدت ثورة السخط على الشاه .

دعوة جمال الدين ضد الشاه

أقام السيد بالبصرة زمنا حتى أبل من مرضه ، ثم أرسل كتابا الى كبير المجتهدين فى فارس ميرزا محمد حسن الشيرازى ، عدد فيه مساوىء الشاه ، وخص بالذكر تخويله احدى الشركات الانجليزية حق احتكار التنباك فى بلاد فارس ، وما يفضى اليه من استئثار الأجانب بأهم حاصلات البلاد ، وكان هذا النداء من أعظم الأسباب التى جعلت كبير المجتهدين يفتى بحرمة استعمال التنباك الى أن

يبطل الامتياز ، فاتبعت الأمة هذه الفتوى ، وأمسكت عن تدخينه، واضطر الشاه خوف انتقاض الأمة الى الغـــائه ، ودفع للشركة الانجليزية تعويضا ، فخلصت فارس وقتئذ من التدخل الأجنبى .

شخوصه الى أوروبا

مكث جمال الدين بالبصرة ريثما عـــادت اليه صحته ، ثم شخص الى لندن ، فتلقاه الانجليز بالاكرام ، ودعوه الى مجتمعاتهم السياسية والعلمية ، وحمل على الشاه وسياسته حملات صادقة فى مجلة سماها (ضياء الخافقين) ، ودعا الأمة الفارسية الى خلعه ، وقويت دعوة الحرية فى ايران ، واشتد السخط على الشاه ناصر الدين الى أن قتل سنة ١٨٩٦ بيد فارسى أهوج ، وقيل أن للسيد دخلا فى التحريض على قتله ، وتولى بعده مظفر الدين ، واستمرت دعوة الحرية التى غرسها جمال الدين فى ايران تنمـو وتترعرع حتى آلت الى اعلان الدستور الفارسى سنة ١٩٠٦ .

ذهابه الى الاستانة واقامته بها

وفيما هو بلندن ورد عليه كتاب من المابين الهمايونى (١) بواسطة رستم باشا سفير تركيا بدعوته الى الاستانة ، فاعتذر أولا ، ثم ورد عليه كتاب آخر بتكرار دعوته فلبى الطلب ، وذهب الى الاستانة سنة ١٨٩٢ .

وكانت هذه هى المرة الثانية لوروده هذه المدينة ، والمرة الأولى كانت فى عهد السلطان عبد العزيز كما تقدم بيانه .

وقد يبدو غريبا أن السلطان عبد الحميد الذى كان نصـــيرا للاستبداد وخصما للحرية ، يدعو الى جواره أكبر زعيم للحـــرية فى الشرق ، وأغلب الظن أنه أراد أن يخدم سياسته فى الجامعـــة الاسلامية باستضافته فيلسوف الاسلام ، لكى يظهر للعالم الاسلامى أنه يرعى العلم والعلماء من الأمم الاسلامية كافة ، ومن ناحية أخرى

(١) السراى السلطانية .

فان تركيا كانت هدفا للمطامع الاستعمارية وكانت تحـــاربها . فبديهى أن رائد التحرر من الاستعمار يرحب بزيارة الأستانة لعله يتخذ منها قاعدة لمحاربة الاستعمار . ولو أن تركيا قرنت هذه الدعوة باقامة دعائم الشورى فى بلادها واصلاح ما فسد من شئون الحكم واعترفت للعرب بحقوقهم ووقفت حيالهم موقفا كريما . لتغير مركزها ولصارت أكثر صمودا للحملات الاستعمارية الأوروبية .

وقد لبى جمال الدين دعوة السلطان ، آملا أن يرشـــده الى اصلاح الدولة العثمانية ، لأن مقصده السياسى هو انهاض دولة اسلامية أيا كانت الى مصاف الدول العزيزة القوية ، فسار الى الآستانة لتحقيق هذا المقصد ، وحفه عبد الحميد بالرعاية والاكرام ، وأنزله منزلا كريما فى قصر بحى (نشان طاش) ، من أفخم أحياء الآستانة ، وأجرى عليه راتبا وافرا ، قيل انه خمس وسبعون ليرة عثمانية فى الشهر .

ومضت مدة وجمال الدين له عند السلطان منزلة عالية ، ثم ما لبث أن تنكر له ، وأساء به الظن ، اذ كان من أخص صـــفات عبد الحميد اساءة الظن بالناس كافة ، وخاصة بمن يتصلون به ، والاستماع الى الوشايات والدسائس ، وكان الشيخ أبو الهدى الصيادى الذى نال الحظوة الكبرى عند مولاه يكره أن يظفر أحد بثقته . فوشى بالسيد عند السلطان وأوغر عليه صدره فأحيـــط السيد بالجواسيس يحصون عليه غدواته وروحاته ويرقبون حركاته وسكناته .

وقيل ان من أسباب استماع عبد الحميد لوشايات الواشين أن السيد جمال الدين التقى مرة بالخديو عباس حلمى الثانى خديو مصر اذ كان يرغب عباس فى مقابلته لما كان يسمعه وهو على الأريكة الخديوية عن فضل الفيلسوف الأفغانى . فلما طلب مقابلته كان جوابه : انه لابد لذلك من اذن السلطان . فاستأذن غير مرة بواسطة بعض رجال المابين . فكانوا يرجئون ويسوفون فى الجواب . وبينما

كان جمال الدين جالسا فى المتنزه المعروف (بالكاغدخانة) بالاستانة فى أصيل أحد الأيام جاء الخديو عباس حلمى وحياه وجلس واياه يتحدث اليه . فطار الجواسيس الى السلطان بالخبر . فأرسل يستدعيه اليه ولما لقيه قال : أتريد أن تجعلها عباسية ؟ يشير الى الخلافة . فقال جمال الدين : « ان بنى العباس قد انقرضوا . وبنو على أولى » . ولم يكن يعتقد أن السلطان يقصد عباس حلمى فى حديثـــه .

فبمثل هذه الأوهـــام كان الجواسيس يوسوسون للسلطان ويوغرون صدره على جمال الدين .

وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان فى هذا الصـــدد فى كتاب « حاضر العالم الاسلامى »(١) أن السيد كان وعبد الله نديم الكاتب والخطيب المصرى المشهور فى متنزه (الكاغدخانة) ، فصادفا الخديو عباس حلمى وسلم بعضهم على بعض وتحادثوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك ، فقيل أن الشيخ أبا الهدى قدم تقريرا للسلطان بأن جمال الدين وعبد الله نديم تواعدا مع الخديو على الاجتمـــاع فى (الكاغدخانة) ، وهناك عند الاجتماع بايعاه تحت الشجرة ، ويقول الأمير شكيب : ان السلطان يحسب قول جمال الدين لم يحفل بهذه الوشاية (٢) ، ولكنا نميل الى الاعتقاد أنها تركت أثرا فى نفسه ، وغيرت قلبه على السيد .

وذكر أن الذى أدى الى وحشة السلطان منه استمراره فى مجالسه على القدح فى شاه العجم ناصر الدين ، مما حمل سفير ايران على الشكوى منه الى السلطان ، فاستدعاه ، وطلب اليه الكف عن مهاجمة الشاه ، فقبل ، وكان فى يده حين قابل السلطان سبحة .

---

(١) تأليف المستر ستودارد الأمريكى وتعريب الأستاذ عجاج نويهض وفيه فصول وتعليقات قيمة للأمير شكيب أرسلان .

(٢) حاضر العالم الاسلامى ج ١ ص ٢٠٣ .

فجمعها في كفه وقال بصوت جهوري : « امتثالا لاشارة أمير المؤمنين فاني من الآن قد عفـــوت عن الشـــــاه ناصر الدين » . فدهش عبد الحميد من هذا الجواب وقال له « بحق يخاف منك الشاه خوفا عظيما » .

وخرج جمال الدين من حضرة السلطان الى حجرة رئيس الأمناء فقال له بلطف « يا حضرة السيد ان اجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل . واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة وأنت تلعب بالسبحة فى حضرته » .

فقال جمال الدين « سبحان الله ان جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة . وليس من يعترض منهم . أفلا يكون لجمال الدين حق فى أن يلعب بسبحته كيف يشاء ؟ » فترك رئيس الأمناء حجرته مهرولا خائفا من كلام جمال الدين .

وكان يخاطب السلطان بشجاعة لا يستطيع غيره أن يقلده فيها . ولم يدخر وسعا فى تحذيره من الخونة من رجاله حتى قال له يوما :« ياجلالة السلطان مللت من تعاطينا الشكاية . ومن غيرك صاحب الأمر ؟ خذ بحزم جدك محمـــود وأقص الخائنين من خاصتك الذين يبعدون عن بلاطك حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال فى الولايات . خفف الحجاب عنـــك وأظهر للملأ ظهورا . يقطع من الخائنين الظهور . وأعتقد أن نعم الحارس الأجل » .

وعند ذلك تنفس السلطان الصـــعداء وقال « ذكرتنى بعهـــد جدى محمود . وما أبعد الفرق بين محيطى ومحيطه . من حالة أوروبا فى زمانه وحالتها اليوم . بين رعيته والرعية اليوم » .

ولكن حدث أن قتل الشاه سنة ١٨٩٦ فاشتدت الريبة فى جمال الدين ، واتجهت اليه شبهة التحريض على قتله ، فأمر السلطان بتشديد الرقابة عليه ، ومنع أى أحد من الاختـــــلاط به الا بارادة سلطانية ، فأصبح السيد محبوسا فى قصره .

مرضه ووفاته

تواترت الروايات بأن جمال الدين مات شبه مقتول ، وتدل الملابسات والقرائن على ترجيح هذه الرواية ، فان اتهامه بالتحريض على قتل الشاه ، وتغير السلطان عبد الحميد عليه ، وحبسه فى قصره ، ووشايات أبى الهدى الصيادى » ، مما يقرب الى الذهن فكرة التخلص منه بأية وسيلة ، هذا الى أن الغدر والاغتيال كانا من الأمور المألوفة فى الآستانة .

وأصدق الروايات وأحقها بالثقة فيما نعتقد ، ما ذكره الأمير شكيب أرسلان فى كتاب (حاضر العالم الاسلامى) ، قال ما خلاصته: « انه لما اشتد التضييق على السيد جمال الدين أرسل مستشار السفارة الانجليزية يطلب منه ايصاله الى باخرة يخرج بها من الآستانة ، فجاءه المستشار وتعهد له بذلك ، فلما بلغ السلطان الخبر أرسل اليه أحد حجابه يستعطفه أن لا يمس كرامته الى هذا الحد ، ولا يلتمس حماية أجنبية ، فثارت فى نفسه الحمية والأنفة، وأخبر مستشار السفارة بأنه عدل عن السفر ، ومهما كان فليكن ، ولكن الرقابة عليه بقيت كما كانت ، وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر فى فمه مرض السرطان ، فصدرت الارادة السلطانية باجراء عملية جراحية يتولاها الدكتور قمبور زاده اسكندر باشا كبير جراحى القصر السلطانى ، فأجرى له العملية الجراحية ، فلم تنجح، وما لبث الا أياما قلائل حتى فاضت روحه ، ومن هنا تقول الناس فى قصة هذا السرطان ، وهذه العملية الجراحية لقرب عهد المرض بتغير السلطان على السيد ، وما كان معروفا من وساوس عبد الحميد ، فقيل ان العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمدا ، وقيل لم تلحق بالتطهيرات الواجبة فنا ، بحيث انتهت بموت المريض (١) .

---

(١) حاضر العالم الاسلامى ج ١ ص ٢٠٤ .

وذكر الأمير شكيب أن المستشرق المعروف الكونت (لاون استروروج) حدثه أن المترجم كان صديقه ، فدعاه اليه بعد اجراء العملية الجراحية ، وقال له ان السلطان أبى أن يتولى العملية الا جراحه الخاص ، وأنه هو رأى حال المريض ازدادت شدة بعد العملية ، ورجا منه أن يرسل اليه جراحا فرنسويا مستقل الفكر ، طاهر الذمة ، لينظر فى عقب العملية ، فأرسل اليه الدكتور (لاردى) ، فوجد أن العملية لم تجر على وجهها الصحيح ، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة ، وأن المريض قد أشفى بسبب ذلك ، وعاد الى استروروج ، وأنبأه بهذا الأمر المحزن ، ولم تمض أيام حتى فارق جمال الدين الحياة .

وذكر واحد ممن كانوا فى خدمة عبد الحميد ، بعد أن روى له الأمير شكيب هذه القصة ، أن قمبور زاده اسكندر باشا كان أطهر وأشرف من أن يرتكب مثل تلك الجريمة ، وحقيقة الواقعة أنه كان بالآستانة طبيب أسنان عراقى اسمه (جارح) ، يتردد كثيرا على جمال الدين ، ويعالج أسنانه ، وكانت نظارة الضابطة (ادارة الأمن العام) قد استمالت (جارح) هذا بالمال ، وجعلته جاسوسا على السيد ، وصار له عدوا فى ثياب صديق ، وقال صاحب هذه الرواية انه أراد مرة أن يمنع الطبيب المذكور من الاختلاط بجمال الدين ، فأشار اليه ناظر الضابطة اشارة خفية ، بأن يتركه ، وفهم من الاشارة أنه يذهب الى السيد ، ويعالج أسنانه ، بعلم من انظارة ، والسيد لا يعلم بشىء من ذلك ، ويطمئن الى (جارح) ويثق به ، ولم تمض عدة أشهر على حادثة الشاه حتى ظهر السرطان فى فك السيد من الداخل ، وأجريت له عملية جراحية ، فلم تنجح ، وجارح هذا ملازم للمريض ، وبعد موته كانوا يرونه دائما حزينا كئيبا ، يبدو على وجهه الوجوم والخزى ، مما جعلهم يشتبهون أن يكون له يد فى افساد الجرح بعد العملية ، أو فى توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل ،

ولما مات السيد بدأ الندم على الطبيب الأثيم وشعر بوخز الضمير يؤنبه على خيانته هذا الرجل العظيم .

وكانت وفاته صبيحة الثلاثاء ٩ مارس سنة ١٨٩٧ ، وما أن بلغ الحكومة العثمانية نعيه حتى أمرت بضبط أوراقه وكل ما كان باقيا عنـــده ، وأمرت بدفنه من غير رعاية أو احتفال فى مقبرة المشايخ بالقرب من نشان طاش ، فدفن كما يدفن أقل الناس شأنا فى تركيا ، وظل قبره هناك الى أن نقـــل رفاته الى أفغانســـتان سنة ١٩٤٤ .

الفصل السابع

صفاته وأخلاقه وشخصيته

صفاته وأخلاقه

وصفه تلميذه الأكبر الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله :
« انه يمثل لناظره عربيا محضا ، من أهالى الحرمين ، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين ، من سكنة الحجاز ، ربعة فى طوله ، وسط فى بنيته ، قمحى فى لونه ، عصبى دموى فى مزاجه ، عظيم الرأس ، فى اعتدال ، عريض الجبهة ، فى تناسب ، واسع العينين ، عظيم الأحداق ، ضخم الوجنات ، رحب الصدر ، جليل فى النظر ، هش بش عند اللقاء ، قد وفاه الله من كمال خلقه ، ما ينطبق على كمال خلقه ، أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة فى صفاته ، وله حلم عظيم ، يسع ما شاء الله أن يسع ، الى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه . فينقلب الحلم الى غضب ، تنقض منه الشهب ، فبينما هو حليم أواب ، اذا هو أسد وثاب ، وهو كريم ، يبذل ما بيده ، قوى الاعتماد على الله لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر ، عظيم الأمانة ، سهل لمن لاينه ، صعب على من خاشنه ، طموح الى مقصده السياسى ، اذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول اليه ، وكثيرا ما كان التعجل علة الحرمان ، وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد عن الغرور بزخارفها ، ولو بعظائم الأمور ، عزوف عن صغارها ، شجاع ، مقدام ، لا يهاب الموت ، كأنه لا يعرفه ، الا أنه حديد المزاج ، وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة ، الا أنه صار اليوم فى رسوخ الأطواد وثبات الأفناد،

فخور بنسبه الى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، لا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر ، وبالجملة ففضله كعلمه ، والكمال لله وحده » .

وقال أيضا : « بقى علينا أن نذكر وصفا لو سكتنا عنه سئلنا عن اغفاله . وهو أنه كان فى مصر يتوسع فى اتيان بعض المباحات . كالجاموس فى المتنزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرج المحزونين لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار . وكان مجلسه فى تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية . فكان بعيدا عن اللغو منزها عن اللهو . وكان يوانيه فيها كثير من الأمراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم . وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه . لكن الله يحب أن تؤتى رخصه . كما يحب أن تؤتى عزائمه . وأى غضاضة على المرء المؤمن فى أن يخرج بعض همه بما أباح الله له . هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الأفغانى أتينا به دفعا لما افتراه عليه الجاهلون . ولو سلكنا فى تاريخه مسلك التفضيل لأدى بنا الى التطويل » .

وذكر عنه الأمير شكيب أرسلان أنه كان يعظم نفسه عن الشهوات ، ولا يرى من اللذات الا اللذة العقلية العالية ، وأن السلطان عبد الحميد حاول أن يعلق قلبه بالمال والبنين ، ويشغله بزينة الدنيا ، وراوده على الزواج ، فأبى وأعرض ، وكان ينظر الى المال نظره الى التراب ، فلا يدخره ، ولا يتناول منه الا ما هو ضرورى للحياة ، وحاول السلطان أن يعطيه رتبة علمية كرتبة قاضى عسكر مثلا ، فأبى أن يقبل الرتبة وأن يلبس كسوتها المزركشة بالقصب ، وكذلك رفض قبول أى وسام مهما كان عاليا .

وقال عنه (أديب اسحق) وكان من تلاميذه « عرفت صاحب الترجمة بمصر وكنت من مريديه ومحبيه طول مدة الاقامة بالمحروسة (القاهرة) والاسكندرية . أنه أسمر اللون ، ربعة ممتلىء ، قوى البنية ، جذاب النظر ، نافذ اللحظ ، خفيف العارضين ، مسترسل الشعر ، بجبة وسراويل سوداء تنطبق على الكاحلين ، وعمامة

صغيرة بيضاء على زى علماء الآستانة ، عزب ، عفيف النفس ، قانت . كثير القيام ، لا ينام الا الغلس الى الضحى ، ولا يأكل غير مرة واحدة فى اليوم ، على أنه يكثر من شرب الشاى والتدخين ، قوى العارضة طويل الحجة ، واسع المحفوظ ، نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر ويهتك أستار الستائر ، ولكنه على فضله ، لا يسلم من حدة المزاج » .

علو نفسـه

ويلوح لنا أن أبرز صفة فى جمال الدين علو النفس ، ولعلها الصفة الجامعة التى تصدر عنها صفاته الأخرى وأخلاقه ، وقد احتفظ بها فى أشد الأوقات حرجا ، ولازمته عند اشتداد المحن ، وتعاظم الخطوب ، مما دل على أنها غريزة طبعت عليها نفسه العالية ، وحسبك دليلا على ذلك ما كان من موقفه حين نفى من مصر فى أوائل عهد الخديو توفيق ، فقد أنزل الى البحر فى السويس خالى الجيب ، فجاءه قنصل ايران فى ذلك الثغر ، وكان معه جماعة من الماسونية ، ومعه نفر من تجار العجم ، وقدموا اليه مقدارا من المال على سبيل الهدية أو القرض الحسن ، فأبى أن يأخذ منه شيئا ، وقال لهم « احفظوا المال فأنتم اليه أحوج ، ان الليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب » .

وهذه الكلمة وحدها تصور لنا شخصية جمال الدين وعظمته النفسية ، وتصلح أن تكون عنوانا لتاريخه المجيد .

عقيـدته

قال الأستاذ الامام عن مذهبه وعقيدته « أما مذهب الرجل فحنيفى حنفى ، وهو وان لم يكن فى عقيدته مقلدا ، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة . مع ميل الى مذهب السادة الصوفية رضى الله عنهم ، وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض فى مذهبه ، وعرف بذلك بين معاشريه فى مصر أيام اقامته بها ، ولا يأتى من الأعمال الا ما يحل فى مذهب امامه ، فهو أشد من رأيت فى المحافظة على

أصول مذهبه وفروعه ، أما حميته الدينية فهى مما لا يساويه فيها أحد ، يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله » .

الرد على الدهريين

تدل رسالته فى (الرد على الدهريين) على أنه مؤمن صادق الايمان ، يدعم العقيدة الاسلامية على أسس المنطق والحكمة العقلية، فهو فيلسوف من فلاسفة الاسلام الأعلام .

وسبب وضعه لهذه الرسالة انه كان فى الهند طائفة تعتنق مذهب الدهريين وتسمى (النتشرية) وهى كلمة انجليزية نسبة الى Nature ، ومعناها الطبيعة وقد ترددت هذه الكلمة حين اقامة جمال الدين فى حيدر أباد . وسأله الأستاذ محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بحيدر أباد عن حقيقة هذا المذهب فى كتاب قال فيه « يقرع سمعنا فى هذه الأيام صوت « نيتشر » ويصل الينا من جميع الأقطار الهندية . ولا تخلو بلدة من جماعة يلقبون بهذا اللقب (نيتشرى) . فما حقيقة النيتشرية وما مذهبهم وفى أى وقت ظهروا ؟ فكان جواب جمال الدين تأليف رسالته (الرد على الدهريين) .

وقد وضع الرسالة باللغة الفارسية التى كانت شائعة بين المسلمين من الطبقة المثقفة بالهند . ونقلها الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الى اللغة العربية أيام كان منفيا ببيروت عقب اخماد الثورة العرابية . ويفهم من مقدمة الأستاذ الامام لترجمة الرسالة أن حكومة الهند الانجليزية كانت تمد للدهريين فى حبل الغواية لتزلزل عقائد الأمة فى الدين وتضعف من مقاومتها للاستعمار البريطانى . وتلك سياستها فى مختلف البلدان . قال الأستاذ الامام فى مقدمة الترجمة « نحمد الله على الهداية . ونعوذ به من الغواية . ونصلى ونسلم على خاتم رسله . وآله وصحبه هداة سبله . وبعد فقد أتيح لى الاطلاع على رسالة فارسية فى نقض مذهب الطبيعيين من تصنيف العالم الكامل ، محيط المعرفة الشامل . الشيخ جمال الدين

الحسينى الأفغانى . أما الشيخ فله من لســـان الصدق ورفيع الذكر . ما لا يحتاج معه الى الوصف . وأما الرسالة فعلى ايجازها قد جمعت لارغام الضالين . وتأييد عقائد المؤمنين . ما لم يجمعه مطول فى طوله . وحوت من البراهين الدامغة والحجج البالغة ما لم يحوه مفصل على تفصيله . دعاه الى تصنيفها حمية جاشت بنفسه أيام كان فى البلاد الهندية . عندما رأى حكومة الهند الانجليزية تمد فى الغى جماعة من سكان تلك البلاد . اغراء لهم بنبذ الأديان . وحل عقود الايمان . وأن كثيرا من العامة فتنوا بآرائهم . وخدعوا عن عقائدهم . وكثر الاستفهام منه عن حقيقة ما تدعيه تلك الجماعة الضالة . وممن سأله فى ذلك حضرة الفاضل مولاى محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بمدينة حيدر اباد الدكن من بلاد الهند . فأجابه الشيخ برقيم صغير يعده فيه بانشاء رسالة فى بيان ما كثر السؤال عنه ، وقد حدانى علو الموضوع وسمو منزلة الرسالة عنه الى الاجتهاد فى نقلها من لغتها الى اللغة العربية . فتم لى ذلك بمساعدة عارف أفندى الأفغانى تابع الشيخ المؤلف ورجونا بذلك تعميم الفائدة وتكميل العائدة ان شاء الله » (١) .

وأهم ما فى الرسالة اثبات قيمة الدين وضرورته للانسان وأثره فى رقيه وتقدمه . وأثر الالحاد فى انحطاطه .

وهى تفنيد لمذهب الدهريين . وبيان مفاسدهم . واثبات أن الدين أساس المدنية وأن الكفر فساد للعمران .

وخلاصة رأى السيد أن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد ، وأودع فى نفوسهم ثلاث خصال . كل منها ركن لوجود الأمم ، وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية . وأساس محكم لمدينتها . وفى كل منها حافز يحث الشعوب على التقدم لغايات الكمال والرقى الى ذرى السعادة . ومن كل واحدة وازع قوى يبــاعد النفوس عن الشر ويزعها عن مقارفة الفساد .

العقيدة الأولى : التصديق بأن الانسان ملك أرضى وانه أشرف

(١) ص ٢ من رسالة الرد على الدهريين .

المخلوقات . والثانية يقين كل ذى دين أن أمته أشرف الأمم . وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل . والثالثة يقينه بأن الانسان انما ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج الى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى . والانتقال من دار ضـــــيقة الساحات كثيرة المكروهات . جديرة بأن تسمى بيت الأحزان وقرار الآلام . الى دار فسيحة الساحات . خالية من المؤلمات . لا تنقضى سعادتها . ولا تنتهى مدتها . وبين أثر هذه العقائد فى وعى الانسان .

أما الخصال الثلاث فهى : **الحياء . والأمانة . والصدق .**

وأضح جمال الدين أن هذه الأسس التى أتت بها الأديان هى علة العمران . وعليها تتوقف سعادة الانســـــان . وأن الماديين أو الدهريين أو النيتشريين تؤدى تعاليمهم الى انكار هذه الأسس . فتنزل الانسان منزلة الحيوان ، وتفقده الباعث على الخير . وتعده لحياة جامدة ضيقة لا قلب لها . ولا سمو فيها . وفى هذا انتكاس لخلقه . وهدم لكيانه . وحرمان مما أعده الله له .

وقال عن تأثير الايمان بالله : لم يبق للشهوة قامع . ولا للأهواء رادع الا الأمر الرابع أعنى الايمان بأن للعالم صانعا عالما بمضمرات القلوب ومطويات الأنفس . سامى القدرة واسع الحول والقوة مع الاعتقاد بأنه قد قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحق فى حياة بعد هذه الحياة . وفى الحق أن هاتين العقيدتين وازعان قويان يكبحان النفس عن الشهوات ويمنعانها عن العدوان ظاهره وخفيه وحاسمان صارمان يمحوان أثر الغدر ويستأصلان مادة التدليس . وهما أفضل وسيلة لاحقاق الحق والتدقيق عند الحد . وهما مجلبة الأمن ومتنسم الراحة . وبدون هذين الاعتقادين لا تقـــرر هيئة للاجتماع الانسانى ولا تلبس المدنية سربال الحياة . ولا يستقيم نظام المعاملات . ولا تصفو صلات البشر من شائبات الغل وكدورات الغش فلو خويت القلوب من هاتين العقيدتين لسكنتها شياطين الرذائل . وسدت عليها طرق الفضائل . ومن أين لمنكر الجزاء أن يكف نفسه عن خيانة أو يترفع بها عن كذب وغدر وتملق ونفاق .

وقد تقرر أن العلة الغائية لأعمال الانسان انما هى نفسه وكما سبق . فان لم يؤمن بثواب وعقاب وحساب وعتاب فى يوم بعد يومه . فما الذى يمنعه عن ذمائم الفعال . خصوصا اذا تمكن من اخفاء عمله وأمن من سوء عاقبته فى الدنيا أو رأى منفعته الحاضرة فى ركوب طريق الرذيلة والعدول عن سنن الفضيلة . وأى حامل يحمله على المعاونة والمرادفة والمرحمة والمروءة وعلو الهمة وما يشبه ذلك من الأخلاق التى لا غنى للهيئة الاجتماعية عنها . ولئن وجد فى أحد الجاحدين شيء من مكارم الأخلاق بمقتضى الغريزة لكان عرضة للفساد أو كان أبتر ناقصا لفقد ما عده من سائر صفات الكمال .

وبين أن فى الاسلام قواعد محكمة **تميزه على سائر الأديان .**

أولها : صقل العقول بصقال التوحيد . وتطهرها من لوث الأوهام . فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصريف الأكوان يتوحد فى خلق الأفعال . وأن من الواجب طرح كل ظن فى انسان أو جماد ــ علويا كان أو سفليا ــ يكون له فى الكون أثر من نفع أو ضر أو اعطاء أو منع . أو اعزاز أو اذلال .. أو نحو ذلك من خرافات . كل واحدة منها كافية فى أعماء العقول وطمس أنوارها .

وثانيها : أن الاسلام فتح أبواب الشرف للأنفس كلها . وأثبت لكل نفس الحق فى السمو . ومحق امتياز الأجناس . وتفاضل الأصناف . وقوم الناس بالكمال العقلى والنفسى . فالناس انما يتفاضلون بالعقل والفضيلة . لا بأى شيء آخر . وقد لا نجد من الأديان الاخرى ما يجمع أطراف هذه القاعدة .

وثالثها : ان الاسلام يكاد يكون منفردا بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل . وتوبيخ المتبعين للظنون . فهو كلما خاطب خاطب العقل . وكلما احتكم احتكم الى العقل . تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة . وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة واهمال العقل وانطفاء نور البصيرة .

ورابعها : أن الاسلام أوجب تعليم سائر الأمة وتنوير عقولها

بالمعارف والعلوم . وفرض نصب المعلم ليؤدى عمل التعليم . واقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر . فقال « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وقال « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » .

وعلى هذه الأركان الأربعة بنى الاسلام . وكل ركن منها له الأثر البالغ فى تقويم المدنية وتشييد بناء النظام . وتدعيم السعادة الانسانية . وقد دارت حالة المسلمين رقيا وانحطاطا على حسب تمسكهم بهذه العناصر وتخليهم عنها .

علمه

قال الأستاذ الامام عن علمه : « أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمى الا بنوع من الاشارة اليها ، لهذا الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وابرازها فى صورها اللائقة بها، كأن كل معنى قد خلق له ، وله قوة فى حل ما يعضل منها ، كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها ، كل موضع يلقى اليه ، يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه ، فيأتى على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه ، فيظهر المستور منه ، واذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع ، كأن ذهنه عالم الصنع والابداع ، وله لمس فى الجدل ، وحذق فى صناعة الحجة ، لا يلحقه فيها أحد ، الا أن يكون فى الناس من لا نعرفه ، وكفاك شاهدا على ذلك أنه ما خاصم أحدا الا خصمه ، ولا جادله عالم الا ألزمه ، وقد اعترف له الأوروبيون بذلك بعد ما أقر له الشرقيون ، وبالجملة فانى لو قلت ان ما آتاه الله من قوة الذهن ، وسعة العقل ، ونفوذ البصيرة ، هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء ، لكنت غير مبالغ ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

وقال أديب اسحق عن ذكائه : « ومن عجائب ذكائه أنه تعلم

اللغة الفرنسية أو بعضها حتى صار يقدر على الترجمة منها ، ويحفظ من مفرداتها شيئا كثيرا ، فى أقل من ثلاثة شهور بلا أستاذ الا من علمه حروف هجائها فى يومين ، وكان يتتبع حركة المعارف الأوروبية والمكتشفات العصرية ، ويلم بما وضع أهـــل العلم وما اخترعوه جديدا حتى كأنه قرأ العلم فى بعض مدارس أوروبا العـــالية » .

وكان يعرف من اللغات الأفغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنسية جيدا . واسع الاطلاع فى العلوم العقلية والنقلية . وخاصة الفلسفة . كثير المطالعة . لم يفته كتاب ألف فى تاريخ الأمم وآدابها وفلسفتها الا طالعه .

مجلســـه

كان حين اقامته بمصر يلقى الدروس فى داره ، فكانت محط رجال العلماء والأدباء وأذكياء الطلبة ، يقضى النهار فى بيته ، فاذا جن الليل خرج يتوكأ على عصاه الى قهوة اعتاد أن يجلس فيها أمام حديقة الأزبكية (قهوة متاتيا) ، ويأخذ مكانه فى الصدر ، وحوله تلاميذه ومريدوه ، وفيهم الشاعر ، والأديب ، والعالم اللغوى ، والطبيب والجغرافى ، والتاريخى ، والمهندس ، وغيرهم من صفوة أهل الفكر والعلم ، والوجاهة ، فيفيض على محدثيه من بحر علمه.

يقول الأستاذ الامام : « كان السيد جمال الدين يلقى الحكمة لمريدها وغير مريدها . ومن خواصه أنه يجذب مخاطبه الى ما يريده وان لم يكن من أهله . وكنت أحسده على ذلك ؛ لأننى تؤثر فى حالة المجلس والوقت فلا تتوجه نفسى بالكلام الا اذا رأيت له محلا قابلا واستعدادا طاهرا » .

وقال سليم عنحورى عن محدثيه : « انهم يتسابقون الى القاء أدق المسائل عليه ، وبسط أعوص الأحاجى لديه ، فيحل عقد اشكالها فردا فردا ، ويفتح اغلاق طلاسمها ورموزها واحدا واحدا، بلسان عربى مبين ، لا يتلعثم ، ولا يتردد ، يتدفق كالسيل من

قريحة لا تعرف الكلال ، فيدهش الســـامعين ، ويفحم السائلين ، ويبكم المعترضين ، ولا يبرح هذا شأنه حتى يشتعل رأس الليل شيبا ، فيقفل الى داره ، بعد أن ينقد صاحب المقهى كلما يترتب له فى ذمة الداخلين فى عداد ذلك المجمع الأنيق » .

اتساع أفقه السياسى والاجتماعى

كان واسع العلم فى المسائل السياسية والاجتماعية . يتحدث عنها فيبدى الرأى السديد الدال على الحكمة العالية . والمواهب الخلاقة . والتفكير العميق . والتجارب البعيدة الغور .

تأثير الفتح العربى فى الأمم

قال عن تأثير الفتح العربى فى الأمم وسبب انتشار اللغة العربية فيها : « بيان تأثير الوفود على قوم بأحسن مما ألفوه ، وأنه أفعل الوسائل بعد القهر ، لحكمهم ، ولترك الأثر بينهم ، يكفى النظر فى ظهور الاسلام وفتوحاته . حربا كان أم صلحا ، وانتشاره فى أقل من عصر فى أعظم المعمور من الأرض ، فقد عم جزيرة العرب ، فالشام ، فمصر ، فالعراقين ، فالهند ، فأقصى الشرق ، حتى (الآستانة) ، وها هو قبر خالد أبى أيوب الأنصارى فيها ، و «جامع العرب » فى « محلة غلطة » من أكبر الشواهد .

« نعم ان زحف العرب ووفودهم على البلاد انما كان لتعميم الدعوة الدينية أولا ، والا فأداء الجزية للدخول مع القوم فى حقيقة المساواة ، وللقيام فى حفظ كيان المجموع . وكان من يقبل الاسلام لا اكراه عليه فى قبول العادات وتعلم اللسان . كذلك من أدى الجزية فلا اكراه عليه فى دينه ، وباقى مميزاته ، بل يبقى على مألوفه ، ومؤثرات اقليمه ، وخواصه ، ولا خطر على قلب فاتح اسلامى ان يعمم آداب قومه ولسانهم أو أن يتخذ لذلك أقل الوسائل .

« ان كل من دان بالاسلام ، أو رضى بدفع الجزية قد سارع عن طيب خاطر ، وارتياح عظيم للتعرب . والسبب فى ذلك ، أن وفود العرب حملت معها أخلاقا فاضلة ظهرت أفضليتها بأجلى المظاهر ، مثل الأنفة من الكذب ، والوفاء بالعهد ، ومطلق العدل ، وكمال الحرية والمساواة الحقيقية بين الملك والرعية ، واغاثة الملهوف . والكرم ، والشجاعة وباقى الفضائل من الهيئات المتوسطة بين الخلال الناقصة .

« وأمر طبيعى ما لهذه الفضائل والصفات من السلطة الأدبية على من يتخلق بها . لأن الانسان انما ينفعل بروحه وشعوره ــ والانتخاب الطبيعى فطرى فى الحيوان ، وأشده ظهورا ووضوحا فى الانسان . لذلك انعطفت قلوب الأمم ، على استحسان الوافدين من العرب لبلادهم ، سواء البلاد التى فتحت عنوة ، ووضعت فيها الحرب أوزارها . أو صلحا . وأول مقدمات العادة الاستحسان ، ثم المزاولة حتى ترسخ ملكه .

« والاعجاب بآداب قوم ، باعث على حب التقرب منهم ، وأعظم وسائل التقرب ــ التفاهم ــ فيتبارون فى تعلم اللسان . هكذا تم للعرب ورسخ لهم فى معظم ما فتحوه من الأمصار والبلدان والممالك ، آثار أدبية فضلا عن الآثار العمرانية ، من لسان وعادة ، وأخلاق لم يمكن استئصالها ، بل بقيت رغم أنوف من دال من بعدهم من الدول ومن هيئات الحكومات المختلفة . فمصر بينما هى هرقلية رومانية ، و (المقوقس) عامل له فيها ، أصبحت فى قليل من الزمن اسلامية فى الأغلبية ، عربية بالصورة المطلقة ، فى كافة مميزات العرب . وهكذا القول فى سورية والعراق ، وغيرهما بدون أن يبذل فى سبيل ذلك التغيير أدنى مسعى ، أو يستعمل له أقل الوسائل كما ذكرنا .

« نعم ان أكبر حامل ، وأفعل عامل ، على تعريب أولئك الأقوام هو الفضائل الأخلاقية ، والصفات العالية ، التى كانت تأتى بها العرب مع بأسهم وشجاعة أبطالهم » .

كان واجبا على الترك

أن يجعلوا اللغة العربية لغة الدولة الرسمية

جاء جمال الدين بالاستانة أديب تركى . وأطلعه على مذكرات مخطوطة للمؤرخ التركى ضيا باشا يعترف فيها بأن الترك لم يخلفوا فى البلاد التى فتحوها آثار حضارة وعمران • مثلما ترك العرب من آثار مادية وأدبية لا يقوى الدهر على ملاشاتها . ويقول : ان المسلم والمسيحى واليهودى فى مصر والشام والعراق يحافظ كل منهم قبل كل شيء على نسبته العربية فيقول انه (عربى) ثم يذكر ديانته • وأن آثار العرب المـــادية فى الأندلس لا تقل عن آثارهم فى باقى الأمصار • وأغرب من ذلك أن التركى والجركسى والأرناؤوطى وغيرهم من العناصر غير العربية يستعرب متى وجد فى بلد عربى ويمتزج بالمجموعة العربية حتى تخال أنه (عربى قح) • وأما فى حكمنا فلم نستطع أن نستترك أدنى فئة ممن حكمناهم من الأمم بكمال العدل الاسلامى والسماح التركى ولين الجانب (كذا)•

هذا ملخص ما حوته مذكرات ضيا باشا • وقد سأل الأديب التركى السيد جمال الدين عن رأيه فى تعليل هذه الظاهرة فقال ما خلاصته : أن المرحوم ضيا باشا أشكل عليه الأمر حين اعتقد أن الأتراك شابهوا العرب تماما بمعنى أنهم دخلوا فى دين الاسلام • ولكن فاته أن لكل دين لسانا . ولسان الاسلام هو (العربية) . ولكل لسان آداب • ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق • وعلى حفظها تتكون العصبية • فالأتراك أهملوا أمرا عظيما وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح • وأحب أن يعمل بها الســـــلطان (سليم) • وهى جعل اللسان العربى لسان الدولة العثمـــانية وتعميمه بين من دان بالاسلام من الأعاجم ليفقهوا أحكامه ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه • ومكارم أخلاقه • ومحاسن عوائد أهله •

فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم وبشكل الدين الظاهرى فقط ، بل بفهم أحكامه ، والعمل بآدابه ، وذلك ماتم ولا يتم الا باللسان وهو أهم الأركان .

ولقد قام السلاطين من آل عثمان بفتوحات جليلة ، وقربوا اليهم من كان في عصرهم من فحول العلماء من المسلمين وقد تفردوا اذ ذاك بمعرفة اللسان العربى ، وبعض علومه ، وعرف أولئك الفحول قدر اللسان العربى ، وغالوا فى التقدير حتى أنهم كانوا (على ما قيل) لا يعطون وظيفة علمية الا لمن يحفظ قاموس (الفيروز أبادى) العربى ، وبقى الترك فى فتوحاتهم على هذه الصورة ، وفى مجموعهم أبه بداوة صرفة ، لم يتخذوا غير القوة المادية آلة ، ولم ينقلوا سواها للبلاد ، انهم تدينوا بالاسلام على أبسط حالاته وأشكاله ، ولكن على بعد سحيق من فهم معانى القرآن وآداب اللسان العربى ، والعرب لو كانوا مثلهم لما استطاعوا أن يكونوا أحسن أثرا منهم ، ولما كان لهم حضارة ولا مدنية ، ولبقوا على بداوتهم ، همهم فتح البلاد للاستغلال ، وجمع الأموال للرفاه والترف ، أو للبذخ والسرف .

الى أن قال : أما انتشار اللسان العربى فى غير بلاد العرب ، فليس للفاتحين أدنى دخل فيه ، ولا اتخذوا له أسبابا ووسائل ، بل ان ما وجد فى اللسان العربى من الآداب الباهرة ، والحكم والأمثال والمواعظ ، هو الذى أحله من الانتشار هذا المحل ، حتى أن العرب قبل الاسلام وهم فى تلك الحالة الجاهلية ، والبداوة المحضة ، وبعدهم عن كل حضارة ، كانوا يحلون بآداب لسانهم من أعظم الملوك مثل كسرى أنوشروان ، محلا رفيعا ، ويأخذون الجوائز ، ويثرون بتجارتهم مع الأعاجم بآداب لسانهم ، وما يجرى على ألسنتهم من الحكمة التى تأخذ بمجامع القلوب ، هكذا كان الذكاء العربى الفطرى المتوقد ، يناسبه سلاسة اللسان وأدبه ، فكان اذا ظهر بين العرب حكيم طبيب مثل (الحرث بن كلدة) مثلا ، استطاع بآداب اللسان وفرط الذكاء أن يقارع ويضارع

أكبر حكيم من الفرس مع حضارته ومدنيته • وكذلك الشاعر فى قبيلته اذا نبغ أجلته القبيلة • واعتبرته حامى ذمارها بأدبه وشعره • وأغنته بالمال والماشية • وأما فى الحضارة الاسلامية • وفى دولها • فكثير ممن برع فى الأدب فأوصله الى مرتبة الوزارة فالامارة •

هذا بعض ما لآداب اللسان من التأثير المادى • وأما التأثير المعنوى فيكفى أنه من أكبر الروابط التى تجمع الشتات • وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر • فكم رأينا من دول اغتصب الغير ملكها • فحافظت على لسانها حكومة • وترقبت الفرص • ونهضت بعد دحر فردت ملكها • وجمعت اليها من ينطق بلسانها • والعامل فى ذلك انما هو اللسان • قبل كل ما سواه • ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم • ونسوا مجدهم • وظلوا فى الاستعباد الى ما شاء الله •

وقال فى موضع آخر « لننظر فى فتوحات الدولة العثمانية للممالك الاسلامية • من مصر والشام • فحلب • فبغداد • فتونس وسائر الممالك العربية • فنراها قد تمكنت من الفتح مع قليل من المقاومة والحروب • وكان لجامعة الدين التأثير العظيم فى قبول الحكم العثمانى • ولو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها • وعملت من عهد السلطان محمد الفاتح • أو السلطان سليم • باتخاذ اللسان العربى — وهو لسان الدين — لسانا رسميا وسعت بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك ، لكانت فى أمنع قوة ، وآمن حصن من الانتقاض، والخروج على سلطانهم • ولكنها فعلت العكس ، اذ فكرت فى تتريك العرب وما أسفهها سياسة ، وأسقمه من رأى ، لأن تدين الأتراك بالدين الاسلامى على جهل باللسان العربى • جعل فى القلوب منزلة — ساقت وتسوق الأمة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين . فما قولك لو تعربت ، وانتفى من بين الأمتين ، النعرة القومية — وزال داعى النفور والانقسام «بالتركى وبالعربى» — وصاروا أمة عربية — بكل ما فى اللسان من معنى ، وفى الدين

الاسلامى من عدل ، وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق ، وفى مكارمهم من عادات • لاريب لو تيسر ذلك لكان اعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسورا — وجمع شتات الممالك الاسلامية تحت لواء سلطان عادل ، همام مثل الفاتح ، أو السلطان سليمان ، أو السلطان سليم غير عسير • ولكن مع الأسف كان عدم قبول فكرة السلطان الفاتح ، أو السلطان سليم لتعميم اللسان العربى — خطأ بينا — لا يضارعه الا توغل العثمانيين فى أوروبا ، وشبه جزيرة البلقان ، وجعل القسطنطينية عاصمة السلطنة والخلافة » •

ماهية الجزية

قال جمال الدين فى تفسيرها : ان أهل الكتاب خيرهم الاسلام بين أحد أمرين : اما الاشتراك بأداء الجزية وفيه صلاح الأمر الدنيوى للكافة • والمقصد الأعلى من هذا صون النفوس وعدم سفك الدماء بقليل من مال يؤخذ ينصرف فى المنافع والمصالح المشتركة • وفى تعزيز قوة المجموع • وكذلك يدخل به مع القوم فى ساحة مساواة حقيقية • له مالهم وعليه ما عليهم • ولا اكراه عليه فى دينه بل يكون مصانا فى شعائره وأصول عباداته وعاداته من كل أذى •

واما أن يختار الاسلام فيشارك القوم فى العاجل من دنياهم • وسلطانهم • وفى كل ما حوته أخراهم من نعيم مقيم • والغرض الاسمى فى الحالتين كما ترى هو عدم سفك الدماء ووقاية ذلك البناء الالهى من الهدم • بل يتجسم فيه طلب الهداية لعبادة اله واحد • وتأسيس العدالة • وتوزيع الحق •

لذلك ترى أن كل مصر أو قطر دان بالاسلام • أو دخل فى حوزته خيم فوق ربوعه السلام • ورتع أهله فى بحبوحة من العدل المطلق • وساد فيه الأمن والأمان • وحصلت المساواة على أصح وجوهها باعتراف كل منصف غربى مثل سبنسر أوكارلايل وغيرهما•

ممن قالوا الحق ونطقوا بالصدق • وهذا كله لايشبه بصورة من الصور حروب أهل المدنية الغربية الحاضرة التى يشب ضرامها لتوسيع نطاق البلاد بالالحاق • أو بالاستعمار • والنتيجة استبعاد الأمم تحت تلك الصور •

انكاره على من يقول بسد باب الاجتهاد

عرف جمال الدين بنفوره من التقليد والجمود • فكان يأخذ بالأحسن من الأقوال • ويرد الضعيف منها • ويجتهد فى الاستنباط ، ويتناول الأقرب للصواب وما يقبله العقل •

ذكروا يوما فى مجلسه قولا للقاضى عياض فى ذلك . واتخذوه حجة واشتد تمسكهم بذلك القول . . حتى أنزلوه منزله الوحى . فقال جمال الدين : « ياسبحان الله • ان القاضى عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله • وتناوله فهمه • وناسب زمانه • فهل لايحق لغيره أن يقول ماهو أقرب للحق وأوجه • وأصح من قول القاضى عياض أو غيره من الأئمة • وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال الناس ؟ انهم هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم . لقد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا • وقالوا • وأدلوا دلوهم فى الدلاء • فى ذلك البحر من العلم وأتوا بماناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم • وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان » •

ولما قيل له ان ذلك يعد اجتهادا • وباب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود لتعذر شروطه •

فتنفس جمال الدين الصعداء وقال : « مامعنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأى نص سد باب الاجتهاد ؟ وأى امام قال لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين • أو أن يهتدى بهدى القرآن • وصحيح الحديث • أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما • والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية . وحاجيات الزمان وأحكامه . لا ينافى جوهر النص • ان الله بعث محمدا رسولا بلسان قومه (العربى) ليفهم

ما يريد افهامهم • وليفهموا منه ما يقوله لهم « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » • وقال « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » • وفى مكان آخر « انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » • فالقرآن ما أنزل الا ليفهم ولكي يعمل الانسان بعقله لتدبر معانيه وفهم أحكامه والمراد منه • فمن كان عالما باللسان العربى • وعاقلا • وعارفا بسيرة السلف • وما كان من طرق الاجماع • وما كان من الأحكام مطبقا على النص مباشرة • أو على وجه القياس • وصحيح الحديث • جاز له النظر فى أحكام القرآن وتمعنها • والتدقيق فيها • واستنباط الأحكام منها • ومن صحيح الحديث والقياس • ولا أرتاب فى أنه لو فسح أجل أبى حنيفة . ومالك . والشافعى . وأحمد بن حنبل • وعاشوا الى اليوم • لداموا مجدين • مجتهدين يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن والحديث . وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ازدادوا فهما وتدقيقا •

« نعم ان أولئك الفحول من الأمة • ورجال الأمة • اجتهدوا وأحسنوا (جزاهم الله عن الأمة خيرا) . ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن • أو تمكنوا من تدوينها فى كتبهم • والحقيقة أنهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر • وتحقيقهم واجتهادهم. ان هو بالنسبة الى ما حواه القرآن من العلوم • والحديث الصحيح من السنن والتوضيح • الا قطرة من بحر • أو ثانية من دهر و « الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده » . وعلمهم مالم يكونوا يعلمون » (١) •

الاسلام والاشتراكية

قيل لجمال الدين : ان خير مافى أوروبا من النهضة هو السوسياليزم Socialisme (الاشتراكية) وهى التى ستؤدى

---

(١) راجع (خاطرات جمال الدين الأفغانى) لمحمد المخزومى وكتاب (جمال الدين الأفغانى • تاريخه ورسالته) وكتاب (صيحة جمال الدين الأفغانى التى بعثت الشرق من سباته وبصرته بحقوقه وواجباته) لمحمود أبو رية .

حقا مهضوما لأكثرية الشعب العامل . فما رأيكم وهل من تعارض بينها وبين الاسلام ؟ .

فقال جمال الدين ما خلاصته : ان ما تراه من الاشتراكية فى الغرب ،وما تتوخاه من المنافع بذلك المذهب ، فى شكله الحاضر ، وأسسه ، وتخبط واضعى مبادئه ـ كل ذلك يعكس نتائج الاشتراكية ، ويجعلها محض ضرر بعد أن كان المنتظر منها كل نفع .

« الاشتراكية الغربية » ما أحدثها ، وأوجدها الا حاسة الانتقام من جور الحكام ، وعوامل الحسد من العمال لأرباب الثراء ـ الذين انما أثروا من وراء كدهم وعملهم ، وادخروا كنوزهم فى الخزائن ، واستعملوا ثروتهم فى السفه وبذلوها فى السرف ، والتبذير ، والترف ـ على مرأى من منتجها ، والفاعل العامل فى استخراجها من بطون الأرض ، ومن ترابها و ... و ... الخ . وبالاختصار ثمرات عمل العامل بكل أنواع حاجةالعمران .

« فكل عمل يكون مرتكزا على الافراط لابد أن تكون نتيجته التفريط .

« أفرط الغربيون (الأغنياء) فى نبذ حقوق العمال والفقراء وراء ظهورهم ، فأفرط العمال فى مناهضة أهل الثروة ، وغاصبى حقوق الأمة ـ بالمناصب ومسببات الجاه ـ فلا قاعدة دينية يرجع اليها ، ولا سلطان وازع يعمل بقهر لصالح المجموع ، لذلك أصبح أمرهم فى الاشتراكية « فوضى » ولسوف ينعكس أمرها .

« أما الاشتراكية فى الاسلام » فهى ممتزجة بالدين الاسلامى، ملتصقة بخلق أهله منذ كانوا أهل بداوة ، وجاهلية .

« فأول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالاسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة ـ وأعظم المحرضين على العمل بالاشتراكية هم كذلك من أكابر الصحابة أيضا ـ واليك البيان :

« أما أن الاشتراكية من خلق البداوة فالبرهان عليه ما كان من أهل الثراء منهم ، ومواساتهم لأهل قبيلتهم وعشيرتهم ، ولا أعد

كثيرا من ذلك بل أجتزىء بمن اشتهر منهم • مثل حاتم الطائى فى السنين المجدبة وكيف أنه نحر ماالديه (وهو فرسه) لمجرد مجىء امرأة من أقصى قبيلة طيىء اذ قالت له : يا حاتم قيل لنا أن عندك لحما ذبيحا فأتيت بصبيتى .

فقال « صدقت » ، ثم نحر فرسه ، وأشعل ناره (تلك العلامة التى كانت كدعوة للمجموع يعلمون ان هناك طعاما ما) فيأتون لمكان الدخان فى النهار ، ولشعلة النار ليلا ، ويشتركون جميعهم فى المأكل دون أدنى منة لصاحبها ، لأن الأمر بينهم مناوبة يفعله الميسور . والثرى كل على نسبته وما لديه من سعة . وقد تواتر الخبر بأن حاتم لم يذق من ذلك اللحم شيئا مع كونه قرما ، سغبا[1] .

« هذا مثل من الاشتراكية قبل الاسلام ومنه يعلم أن الثروة كانت ولاتزال موجودة فى الأفراد ولكن حسن استعمالها ، وجعل نصيب للآخرين فيما يجعل الاشتراكية أمرا مقبولا ، وصفة ممدوحة ــ اذ لا أنانية ، ولا أثرة ، ولا استطالة على الفقير ــ بينما موجد ومسبب ومهيىء تلك النعم كلها ــ هو ذلك العامل الفقير . الذى يسكن كوخا صغيرا .

« هذا ما عليه اليوم أهل الثروة فى الغرب ، وهذا ما استنفر طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكية ــ وفى نفيرهم روح الانتقام ، والافراط فى المطالبة بحقهم يقابله التفريط فى زجرهم ، وعدم الرضوخ لما يطلبونه من الحق ولسوف يتفاقم الخطب ، وتعم من جراء ذلك البلوى فى الغرب . ولا يسلم منها الشرق .

« أما الاشتراكية فى الاسلام ، فهى خير كافل لجعلها نافعة مفيدة ، ممكنا الأخذ بها لأن القرآن أشار اليها بأدلة كثيرة • منها أن المسلم أول ما يقرأ من فاتحة الكتاب (الحمد لله رب العالمين) فيعلم أن للخلق ربا واحدا وهو مع سائر الخلق من المربوبين على

---

(١) القرم : الشديد الرغبة فى اللحم • والسغب : الجائع •

السواء • ويرى ، ويعلم أن القرآن أتى على ذكر أرباب القوة ورجال الحرب ، والغزاة ، ومن يتولى أمرتهم ، وقيادتهم ، فخاطبهم آمرا ، ومعلما ، ومدافعا ، ومبينا حقوق المستضعفين من الأمة الذين لم يتمكنوا من الاشتراك مع من ذكر ليكون لهم من ذلك الجهاد ، وتلك المساعى نصيب اذ قال « واعلموا أن ما غنمتم من شىء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيلَ ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير » .

هذه آية باهرة أوجبت على من يسعى مجاهدا ، ومخاطرا بحياته أن يكون مشتركا معه فى نتيجة غزواته وغنائمه ، من لم يكن مشتركا فعلا ـ فأعطى أولا « الله تعالى » نصيبا ومرجع ذلك النصيب لعباده ـ ثانيا « للرسول » ثالثا « لذوى القربى » وهم لا شك من المستضعفين الذين انما قعدوا عن الاشتراك فى الجهاد ، والسعى وراء الغنائم ، لعلل تختلف أشكالها ، وأنواعها ، ولكن الدين لم يجز حرمانهم بل جعل لهم نصيبا من مساعى أولئك الأشداء ، الأقوياء المجاهدين ، الخائضين غمرات الموت • كل ذلك نراه مبنيا على حكمة الاشتراك ، ولبث حكم هذه الآية جاريا ، وكان الرضا به شاملا لمجموع المسلمين ، من مجاهد أو قاعد عن الجهاد لعلة ، فبدأ بالدرجة الأولى بعد الله ورسوله بذوى القربى من المجاهدين على درجاتهم • وعطف على من دونهم فى المرتبة الثانية • ممن ليس لهم فى المجاهدين أقرباء • فقال « واليتامى » • ثم وسع نطاق الاشتراكية فقال « والمساكين » • ثم رأى أن يأخذ نطاقا أوسع فقال « وابن السبيل » • أى عابره • فتم بهذا الشكل نوع من الاشتراكية لم يكن أوسع منه شكلا ، ولا أنفع • ثم جاء فى موضع آخر من الكتاب مقرعا لمن يكنزون الذهب والفضة ، ثم حبذ وأثنى على الذين يؤثرون على أنفسهم بالعطاء والاسعاف والاطعام ولو كان بهم خصاصة •

وهكذا ترى قانون الاشتراكية المعقول فى آيات من القرآن تترى .

ثم قال : « لما كان مذهب الاشتراكية كبقية المذاهب والمبادىء، له طرفان رأى الشارع الأعظم أن تنعم فريق من قوم ، وشقاء فريق آخر فى محيط واحد ، وبمساع ليس بينها وبين مساعى الآخرين كبير تفاوت ـ مما لا يتم به نظام الاجتماع ـ وكان النبى صلى الله عليه وسلم « بالمؤمنين رحيما » فجاءه عن طريق الوحى وهو نتيجة تمحيص نزعات النفس البشرية ، وما عسى أن ينجم من المضار أو المنافع لها ـ فوضع للدين أركانا خمسة . ومن تلك الأركان « فرض الزكاة » فى المال ، والركاز والأنعام .. الخ . ثم أضاف اليها كما سبق « غنائم الحروب » ، فأخذ منها قسطا بمقدار الخمس ـ ثم بعد ذلك حرص على بذل « الصدقات » .

* * *

هذا ما قاله جمال الدين الأفغانى عن الاشتراكية الاسلامية . فالاسلام جعل الزكاة من أركانه « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » .

فالزكاةهى الاشتراكية الاسلامية . وهى عماد العدالة الاجتماعية والفارق بينها وبين الاشتراكية الغربية أنها فى الغرب قد تطورت وتطرفت . وتولدت عنها الأحقاد و الضغائن بين طبقات الشعب . وجعلت الأمن والنظام فى حاجة الى حاكم بأمره يضع حدا لوقف الحرب بين الطبقات . أو يغلب طائفة المعدمين على طائفة الطبقة الموسرة والمتوسطة اليسار . فى حين أن اشتراكية الاسلام أساسها التعاون التعاطف والتراحم وتجنيب البلاد ويلات حرب الطبقات .

والزكاة واجبة فى الأموال النقدية وفى عروض التجارة بنسبة (ربع العشر) ٢٫٥ ٪ وتقدر بنحو ذلك فى غيرها . وهى ليست احسانا . بل هى فرض يلتزم به المواطنون بشروطه ، وتشرف الدولة على تحصيله كشأن الضرائب العامة . وهو نظام اجتماعى

سديد يبقى على الملكية الفردية وعلى النشاط الاقتصادى الفردى • ويتدخل فى توزيع العدالة الاجتماعية بين الطبقات وتتولى الدولة صرف حصيلته على ما يحقق مصالح المواطنين جميعا •

جواز الفائدة اليسيرة فى القروض

قال جمال الدين الأفغانى : ان الاسلام حرض على بذل الصدقات وحرم الربا بنكتة غاية فى الحكمة • وهى أن لا يؤكل الربا أضعافا مضاعفة • وهو ما وقع عليه التحريم • ولكى يكون للامام مخرج اذا اقتضت المصلحة التسامح للحكم بجواز الربا المعقول الذى لا يثقل كاهل المدين ولا يتجاوز فى برهة من الزمن رأس المال • ويصير أضعافا مضاعفة • وفرق صراحة بين احتيال المرابين المتلبسين بالدين الذين يتظاهرون بتجنب الربا ببيعهم سلعة قيمتها الحقيقية مائة درهم يتجرون عند بيعها مع المشترى المضطر بثلاثمائة درهم • وحقيقة هذا الفرق ماهو الا نصيب الربا وعينه• وانما يجعلونه عن طريق البيع • ويخدعون أنفسهم بأنهم تخلصوا من ارتكاب جريمة الربا التى حظرها عليهم الدين • واليك بعض ما جاء فى هذا الشأن من القرآن : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس • ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا • وأحل الله البيع وحرم الربا • فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى • فله ما سلف وأمره الى الله • ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون • يمحق الله الربا ويربى الصدقات • والله لا يحب كل كفار أثيم » وقال « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » •

ورأى الحكيم الأفغانى فى هذا الصدد قريب من رأى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الذى أفتى بأن أرباح صندوق التوفير بمصلحة البريد لا حرمة فيها وهى لا تتعارض مع تعاليم الدين فى شىء •

سخطه على الاستعمار

ودعوته الى مقاومته والتحرر منه

قال جمال الدين يصف الاستعمار وأسبابه ومعناه وأهدافه والوسائل لمقاومته والتحرر منه :

« لقد برز الأوروبيون فى ضروب السياسة لتوسيع ممالكهم، وتفننوا فى ايجاد الوسائل المؤدية لذلك وكان أسبقهم فى الدهاء وأكثرهم فى الاستيلاء (الانكليز) . وهم فى مقدمة من رأى من دول الغرب ــ أن فتح البلاد ، وتملكها بالجيوش ، والكفاح والقتال من مزعجات الأمور وأن الدخول من باب المكر ، واللين ، والخديعة والختل ، أوفر ، وأسهل ، وأقرب وأفعل . فاعتمدت هذا الأخير سلاحا ، ونالت به نجاحا . وتركت الأول وهو (الحرب والقتال) وفتح البلاد غلبا وقهرا . ورجعت للثانى . وألبسته من الأسماء طيلسانا لين الملمس ، هين الملبس ودعته (بالاستعمار) ودعت ما يؤخذ من الممالك (مستعمرات) . وجرت فى هذا المضمار فكانت (المجلى) (١) وحازت قصب السبق وتبعها غيرها من الدول فكانوا (السكيت) (٢) .

ان هذا الاستعمار لغة ، واصطلاحا ، مصدرا ، واشتقاقا . لا أراه الا من قبيل أسماء الأضـــداد وهو أقرب الى « الخراب » و « التخريب » والى « الاسترقاق » ، والاستعباد منه الى العمار ، والعمران .

لا تسير دول الاستعمار الا الى البلاد الغنية فى ثروتهـــا ، ومعادنها ، وخصب تربتها ومن كان أهلها فى الدرك الأسفل من الجهل ، قد خيم عليهم الخمول ، لا يبدون حراكا ، ولا يقربون عراكا .

« واذا صادفت دول الاستعمار (على طريق الشذوذ) فى

---

(١) المجلى : الفرس الســـابق فى الميـدان .

(٢) السكيت : أحط مراتبها جريا .

بعض الممالك أو المقاطعات مقاومة من سلطان أو أمير • فما هى الا مناوشة صغيرة مع تلك المعدات الحربية الحديثة ـ وقد سقط الملك ، أو الأمير أسيرا ، فسيق مع أهل بيته ذليلا ، وحجر عليه فى أضـــيق البلدان ،وأبعدها عن انعمران ، وتدخل المملكة ، أو الجزيرة أو المقاطعة وتنتظم فى سلك المستعمرات فيصبح أعزة البلاد أذلاء ، ويحل محل الحرية الشخصية الاســـتعباد ، وكم الأفواه ـ وينتصب الميزان • ليحاسب من تطرف عينه من الأهلين، أو يشخص ببصره ، أو يلتفت الى ورائه . ليس لأحد من خيرات بلاده شيء • وكل الضرائب ، والضربات ، والشر والويلات • لأهل البلاد وعليهم ، لا يشاركهم فى ذلك أحد .

« هذا اذا كان الدخول للبلاد « بلعبة حربية » ـ وأما اذا دخلوها من باب الانتصار للأمير ، أو تثبيت الملك ، أو قمع الثورة• وكانوا فى لباس الأصدقاء ، الأمناء ، المخلصين أو المحبين للشعب ورقيه ، وتعليمه دروس الحكم الذاتى • ليستغنى عنهم ويحكم بلاده بذاته !! ـ فهنـــاك تبقى مظاهر الأمور محفوظة ، وبعض التقاليد التافهة مأمونة • يشكلون للأحكام ، وادارة مهام البلاد هياكل من الناس ، ويتركون معهم أمير البلاد قبة جوفاء يرجع منها صدى الصوت فقط • وليس له من الأمر الا اتباع الأمر لا غير ومختصر القول ـ أن الاستعمار بمعناه الصحيح ، ومبناه الصريح هو تسلط دول ، وشعوب أقوياء علماء على شعوب ضعيفة جهلاء ولا يخرج عامل الغلب ، والقهر عما ذكرناه فيما سبق وهو أن القوة والعلم يحكمان ، ويتحكمان فى الضعف والجهل . سنة ثابتة ، وقانون متبع فى الكون •

« ولما كان لحياة الأمم والدول ـ أدوار ، وآجال ولحدوثهــا وتكوينها ، وتعاليها ثم توقفهــا وانحطاطها أسباب وعوامل هكذا وجب أن يكون الاستعمار خاضعا لتلك النواميس الكونية بمعنى أنه يصل الى حد محدود وأجل معلوم •

« وانقضاء أجل الاستعمار أنمــــا يتم بزوال الأسباب التى

مكنت أهله من التسلط وأكرهت الشعوب على الخضوع لهم .

« نعم متى ضعف ما كان سببا فى الصعود - يحصل الهبوط، والانحطاط ، - ومتى زال ما كان سببا فى السقوط يحصل الصعود. دور للحاكم والمحكوم ، وقاعدة هى بحكم اللازم والملزوم .

« يحصل للضعيف من صدمة القوى « دهشة ورجفة » . ويحدث من آثار العلم على الجاهل « خشــــية » فيقف بين هاتين القوتين منذهلا ، حائرا ، ذليلا ، صاغرا كما هو الحال مع أهل الاستعمار ، والمستعمرين . اذ يمر الدور الأول بين تجبر وتكبر، وعسف ، وجور . وأهل المستعمرات قد أدهشتهم المفاجأة ، وأذهلتهم الصدمة - فيقابلون كل قول بالسمع والطاعة ويفعلون ما يؤمرون بكمال الخضوع . فيصادرون فى معنوياتهم . من حرية شخصية، وعزة نفسية ، وحرمة ملية ، أو جامعة قومية . ثم يأتى دور القضاء على مادياتهم - فيحرمون من خيرات بلادهم ، ومن كسب تجارتهم، واستثمار مناجمهم ، وبالاجمال الحرمان المطلق من كل خير ، وانزال كل شر وضير فيرزحون آخر الأمر تحت أثقال الضرائب وتتحمل أجسامهم مالا تطيق . فعند الوصول الى هذا الحد من ارهاف الحد تظهر على الأمة عندئذ بعض آثار الحياة وهو ما يشبه «الاختلاج » فاذا التقوا أفرادا أخذ كل منهم ينظر الى الآخر فيهزون رءوسهم هزا خفيفا ، ويفركون أيديهم فركا غير منتظم ، ويحكون رقابهم . هذه هى أول مظاهر الثورة ثم تجول الأفكار ، وبعده يبدأ الهمس ، ثم الهذرمة ، ثم ، وثم الى أن يعلو الصوت ، ويرتفع السوط . ويحكم السيف ويأتى من بعده حكم العادل وهو سبحانه ولى المظلومين .

« ولو جاز لدولة أن تشذ فتعامل المستعمرات بشىء من العدل، ولم ترهقهم ظلما ، وتسومهم جورا وعسفا - للزم أن يكون ذلك الشذوذ بمعاملة الانكليز لمستعمرة « أميركا » وبينها وبينهم من جامعات اللسان ، والدين ، والمذهب والأخلاق ما يدعو للعطف ، ويحمل على الاقلال من العنف .

« ولكن هيهات !! فليس لقاعدة الاستعمار من شاذ وكلنا يعلم

ما عاناه الأميركانيون من جور الحكومة الانكليزية ، وتفننها بأنواع المظالم ، وسلب أموالهم بأشكال الضرائب . وآخر ضريبة ، أو ضربة نبهت الأميركانيين ودفعتهم لطرح نير انكلترا بقوة السـلاح ، ونهوض الأمة « ضريبة ورقة التمغة » وأن صكوك البيع وكافة العقود والعهود اذا لم تكن محررة على تلك الورقة لا يعمل بها .. وناهيك بما فى هذا الحكم من الجور وضياع أملاك وحقوق ـ نعم لجأ الأميركانيون فى بدء أمرهم الى ما يلجأ اليه الضعيف . اذ بعثوا بالشكوى الى عاصمة الانكليز ومجلس أشرافهم ـ عقب أن عقدوا جمعية عمومية فى مدينة نيويورك ، وعقب أن أوسـعوا « مأمور بيع ورق التمغة » ضربا واتفقت كلمة الجميع على الرفض . وهذا أول طلائع القوة التى لا يرضخ الانكليز لقوة سواها . وهو اجتماع كلمة « الأمة » .

خدرت أعصاب الأميركانيين بإبطال ورقة التمغة . وفى الوقت ذاته أحدثت ما يمكنها من سلب مال الولايات المتحدة ، فوضعت رسم الكمرك على ما يدخل اليها من الشاى . وهذا الرسم أكثر سلبا للمال من التمغة ـ وعمدت فى التنفيذ الى استعمال القهر والقوة. ولما كانت روح الحياة فى الأميركانيين قد دبت وجازت وتخطت دور « الاختلاج » و « الهمس » ووصلت الى دور ارتفاع الصوت ، وسل السيف ـ فرمت بالشاى الوارد الى البحر ووقفت للقوة الانكليزية بقوة الأمة الأميركانية . وألقت مقاليد أمورها وادارة حروبها الوطنية الى بطل حريتهم واستقلالهم « الجنرال واشنطون » العظيم .

السيف أصـدق أنباء من الكتب
فى حده الحد بين الجـد واللعب

« قل لى لو ثابر الأميركانيون دهرا على بث الشكوى من ولاة الانكليز الى مجلس وزراء الانكليز ، واستنفدوا المداد ، وسودوا ما فى الأرض من قرطاس تظلما واستغاثة . هل كان يفيدهم فى استقلالهم شيئا ، أو يكشف عنهم بلاء استعمار البريطانيين ؟ لا والذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف .

« فقوة كل أمة كامنة فى أفرادها . لا يظهرها الا الاتحاد . ولا يخفيها الا التفرق . فمن رام من الأمم استعادة مجـــــدها ، والتخلص ممن أذلها . فليس غير طريق « الاتحاد » ما يوصل الى الغاية وينقذ من البـــلاء ولا غير حب الموت ما ينجي من الموت . وينيل المرء احدى الراحتين . فاما أن يعيش بحريته واستقلاله سعيدا . واما أن يموت دونهما (بطلا شهيدا) .

« أرونى مملكة ، أو أمة انغمس ملوكها ، وأمراؤها فى السفه، والسرف وعم الجهل طبقات الشعب ، وتفرقت كلمتهم فاستكانوا للذل والهوان . ولم يستعبدها الاستعمار ، ويحل فيها الدمار !!.

« وهاتوا ، مملكة أو قارة ــ اتفقت كلمة أهلها ، وأنفت من الذل ، ورفضت الاستعباد واستلت السيف ، وطاب لها الحتف ولم تنل استقلالها والتمتع بحريتها ولو كان المستعمر أعظم الدول قوة واقتدارا .

« هل من حاجة للاتيان بالأدلة ، وضرب الأمثلة على أن أصغر الأمم ناهضت أعظم الدول ــ وظفرت بحاجتها ، ونالت حريتها واستقلالها ؟ .

من هم اليونان سكنة ولاية المورة ؟ قبل أقل من عصر عندما ناهضت الدولة العثمانية . تلك الدولة التى كانت تحكم ستين مليونا من النفوس اذ ذاك ــ واليونان الى اليوم لم يتجاوزوا فى متفرق المعمورة مليونين .

« كم عدد المصريين ؟ وهل تجاوزوا بعد استقلالهم مليونين ونصف مليون نسمة تقريبا ؟! .

« ماهو الجبل الأسود ؟ ــ ومجموع سكانه لم يبلغوا عدد سكان محلة « بك أوغلو » فى الآستانة ــ وما هى قوته ، وجيشه ، بالنسبة لقوة ، وجيش الدولة العثمانية ! . وهكذا القول فى بلغاريا ، ورومانيا ...

« فبعد هذه الأدلة المحسوسة ، والأمثلة الملموسة ــ لايصح أن

يبقى أدنى ريب . أن المستعمرات لأى دولة مهما تعاظمت قوة ، واقتدارا كالثوب العارى لا يلبث حتى يسترد عند طلب صاحبه بالسنن المعروفة ، والطرق الموصوفة .

وهل يشك المصريون وهم يزيدون عن العشرة ملايين (١) وكلهم أحفاد الغزاة ، الفاتحين من أعز قبائل العرب واخوانهم الأقباط أحفاد أولئك الأشداء الذين تدل آثارهم على عظم هممهم انهم اذا نهضوا لم يظفروا بالاستقلال ، والحرية واعادة المجد القديم لذلك القطر السعيد فحسب ، بلى انهم سينهضون أن شاء الله ، ويعملون متحدين ، معتصمين بحبل الله ، وينالون ما يتمنون بحول الله . والله على كل شيء قدير » .

طريق الغرب الى استعمار الشرق

قال فى هذا الصدد ما خلاصته « ما من دولة غربية تطرق باب مملكة شرقية الا وتكون حجتها اما حفظ حقوق السلطان . أو اخماد فتنة قامت على الأمير . أو انقاذ نصوص الفرمانات . أو غير ذلك من البهتان . والختل . والخداع . وواهى الحجج .

« فاذا لم تكف تلك الأضاليل . تذرعت اما بحجة حماية الأقليات أو حقوق الأجانب وامتيازاتهم . أو حرية الشعب . أو تعليمه أصول الاستقلال . أو اعطاء الشعب حقه تدريجيا فى الحكم الذاتى . أو اغناء الشعب الفقير بالاشراف على موارد ثروته . فالشعب الخامل يرتاح الى تلك المواعيد ويرضخ للحجر الغربى .

ولأجل أن يصل الغربى الى الاستيلاء على بلد ما . يضع خطته وهى :

أولا ــ اقصاء كل وطنى حر يمكنه الجهر بمطالب وطنية .

ثانيا ــ تقريب الأسقط همة . والأبعد عن المناقشة والمطالبة بالحق .

(١) هذا كان عدد سكان القطر المصرى يوم كتبت هذه المقالة سنة ١٣١٠ هـ ١٨٩٣ م (خاطرات جمال الدين الأفغانى لمحمد المخزومى) .

ثالثا ـ الدخول على البلاد بتفريقها طوائف وشيعا » .

ومن يتأمل فى أقوال جمال الدين الأفغانى يجد ولا ريب أنها صادرة عن ايمان عميق بالحرية والاستقلال . وعقيدة راسخة فى بغض الاستعمار والثورة عليه . ودعوة صادقة الى الشعوب الشرقية أن تنهض وتتحرر من ربقة الاستعباد والاستعمار .

رأيه فى السلف والخلف

وقال عن السلف والخلف : « الكون يشهد ، والآثار تدل ، ولا من يفكر أن للعرب ، وغيرهم من العجم ـ آثارا ومفاخر أتت من وراء الهمم ، وصدق العزائم معه ، ولكنها يا للأسف وقفت فى أجداث الأجداد ، وجاورت عظام أولئك العظام ـ أعلام المروءة ، عصبة الرحمة ، أولياء الشفقة ، أهل النجدة ، أسود الحمية ، وغوث المضيم يوم الشدة ، شوامخ القوة ، رواسى العدل ـ تلك بعض صفات السلف ـ عثر عليها الخلف بالنبش وهو فى جبانة « الجبن » و « الخمول » ـ وقرأها فى سطور كتاب حادثات الدهر ، وأوراق سجل رجال العالم ـ فطفق يفخر ، ويعدد ، ويصول ، ويطول ، ويقول : نحن من لمعت سيوف أجدادهم بالمشرق ، وانقضت شهبها على المغرب ، فذلت لهم رقاب القياصرة ، والأكاسرة ، وخضعت لأمرهم الأمم ، خفقت أعلام فتوحاتهم فوق ممالك الأرض فطهروها من جراثيم الظلم والجور وملأوها بالرجمة والعدل ـ وهكذا لا تزال تسمع كلا من العربى ، والفارسى وغيرهما من الشرقيين ـ يقول نحن أحفاد أولئك الأجداد ، ونحن سلالة وذرية أولئك الأقيال الأمجاد ، ونحن ونحن مما يثير الأشجان ، ويزيد الأحزان .

« نعم أولئك آباؤنا ، وأجدادنا قد جاد الزمان بهم فجاءوا ولكن واسوأتاه ، وامعرتاه ، واخجلتاه ! : ـ اذا هم سألونا عما فعلنا بمخلفاتهم ، وما ورثوه لنا ، واستخلفانا عليه من الممالك ، والأقطار وعظيم المدن ، والأمصار .

« نعم أين أنتم أيها الأجداد ، الأمجاد ، القوامون بالقسط ، الآخذون بالعدل ، الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الأمة ؟! ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم ؟! .

انحرفوا عن سنتكم – وحادوا عن طريقكم – فضلوا عن سبيلكم – استبدلوا كل فضيلة برذيلة ، وأتوا على كل أمر الله بعكسه ، نبذوا حكمة الدين واتباع شرع سيد المرسلين ، وتفرقوا فرقا ، وأشياعا – الملوك منهم أنزلوا عن عروشهم (١) وذوو حقوق حرموا حقوقهم ظلما ، وأعزة باتوا أذلة ، وأجلاء أصبحوا حقراء ، وأغنياء أمسوا فقراء ، وأصحاء أصبحوا سقاما ، وأسود تحولت نعاما ، فأصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفا ، وتحترق الأكباد حزنا أصبحوا فريسة للأمم الغربية لا يستطيعون ذودا عن حوضهم ، ولا دفاعا عن حوذتهم .

ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدى الضال الى سواء السبيل ؟! « انا لله وانا اليه راجعون » .
« نعم – أن للأرواح اشراقا بهياكلها الروحانية – على ما تلبس من الأجسام الترابية فى هذه الدار الفانية ، ومناجاة لمن فيه ذلك الاستعداد « اذ الامداد لا يكون الا على قدر الاستعداد » – فاذا أصغينا بالحس الروحى الى ما تريد أن تناجينا به أرواح أجدادنا لوجدناهم يحرقون علينا الأرم ويزعجهم الألم وينادوننا : أيها الأحفاد ! تفتخرون بسيوف لمعت بالمشرق – نعم – وقد تركنا لكم تلك السيوف مشحوذة فى أغمادها – فهلا تقلدتموها ؟ وهلا سللتموها فى وجه من اكتسح بلادكم ، وضرب عليكم الذلة والمسكنة .

تفتخرون بما فتحنا وتركناه لكم من الممالك ، وما تحملناه فى سبيل ذلك من المخاطر والمهالك – ولا تخجلون ، ولا تحزنون وقد

---

(١) ممن قاوموا الاستعمار وحاربوه وكانت له الغلبة عليهم .

سلبتها منكم الأعداء وأنتم من مقاعد جبنكم ، وذلكم تنظرون ـ ولا تتحركون ولا تنهضون وحتى ولا تنطقون .

« تفتخرون بصبرنا ، وثباتنا ، واقـــدامنا ، وبسالتنا ، واعتصامنا بحبل الله واتباع سنن نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم وأنتم على عكس الأمر من أخلاق وصفات ، وما أبعدكم بهذا عن الفخر ـ وأبعد الفخر عنكم ـ ولأنتم أولى باطراق الرأس ـ وغض الطرف خجلا ، وحياء من الله ، ومن أرواحنا فى الملأ الأعلى ـ التى تبرأ الى الله من صنعكم وقلة ايمانكم بالله ، والعمل بما جاء به رسول الله .

« تفتخرون بتمسكنا بأصول الدين ، وحسن اليقين ـ والتزام الكتاب والسنة والعمل بأحكامهما ـ وانه قد استحكمت بيننا رابطة الأخوة فكنا كالبنيان المرصوص ـ نعم هكذا كنا ـ أما أنتم فلم يبق من جامعة بينكم الا العقيدة الدينية « وليس فى الجميع » مجردة عما يتبعها من الأعمال .

انقطع التعارف بينكم ، وهجر بعضكم بعضا هجرا غـــير جميل ـ علماؤكم وهم القائمون على حفظ العقائد ، وهـــداية الناس اليها ـ لا تواصل بينهم ولا تراسل مع جمودهم ـ فالعالم التركى فى غيبة عن حال العالم الحجازى ، والعالم الهندى فى غفلة عن شئون العالم الأفغانى ـ وهكذا ـ بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ولا جامعة تجمعهم ، ولا صلة الا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة ، أو قرابة بين أحدهم والآخر ـ أما فى هيئتكم الكلية فلا وحدة لكم ـ بل لا أنساب بينكم وكل ينظر الى نفسه ولا يتجاوزها ـ كأنه جزء مفصول ، أو عضو مبتـــور .

« تفتخرون بأنه غلب على صفاتنا « التعقــــل » والتروى ، وانطلاق الفكر من الأوهام ، والعفة ، والسخاء ، والقناعة ، والدماثة، ولين الجانب ، والوقار والتواضع ، وعظم الهمة ، والصبر ، والحلم ، والشجاعة ، والايثار ، والنجدة ، والسماحة ، والصدق ،

والوفاء ، والأمانة ، وسلامة الصدر من الحقد والحسد ، والعفو ، والمروءة والحمية ، وحب العدالة ، والشفقة . نعم من الله بها علينا وهكذا كنا ـ وأنتم أيها الأحفاد ! ماذا غلب على أكثركم غير السفه ، والقحة ، والبذاءة ، والبله ، والطيش ، والتهور ، والجبن ، والدناءة والجزع ، والحقد ، والحسد ، والكبرياء ، والعجب ، واللجاج ، والسخرية ، والغدر ، والخيانة ، والكذب ، والنفاق ، والشح . أفبهذه الأخلاق تحبـون أن تتغلبوا ، وتعجبون كيف تسلب أملاككم ، وتذلون ؟ أم بهـذا ترومون اللحـاق بنا وقد خالفتمونا سيرة وسيرا ـ شيما وأخلاقا ؟! .

« هذا بعض ما تحس به أرواحنا من مناجاة أجدادنا لنا ـ وما أطبق (١) أقوالهم هذه على الحق ، وما أقربها من الصواب ، والواقع . أى بينة لنا على أننا خلف ذلك السلف ـ وهل يعقل لو ورثنا أخلاقهم ، وحافظنا على فضائلهم ، واقتفينا أثرهم ولم نحد عن سيرهم ، وسيرتهم ـ نعم لو عملنا بعض ذلك هل كان يسهل سلب الميراث منا ، وأن يستبد بملكنا غيرنا ـ أم بقينا نحن الوارثين ؟ .

« ان « دعوى » حق الأحفاد فى ميراث الأجداد ـ هى فى محكمة الكون والبينة التى يصدر من بعدها الحكم ـ هى اثبات التحلى بفضائل السلف ، والتخلق بأخلاقهم ، والنسج على منوالهـم ، والتزام ما لزموه من السنن ، وجروا عليه بالقول والعمـل ـ فعسى أن نوفق للادلاء بتلك الحجة ـ فتستقيم لنا الحجة ـ اذ كفانا من الذل مالاقينا ، ومن البلاء ما عانينا » .

وصفه للانجليزى والعربى (فى عصره)

قال عن الانجليزى : انه قليل الذكاء عظيم الثبات . كثير الطمع والجشع . عنيد . صبور متكبر .

---

(١) هكذا الأصل والصواب : أن يقال « وما أشد انطباق ـ أو مطابقة ـ أقوالهم » .

وقال عن العربى أو الشرقى : انه كثير الذكاء • عديم الثبات • قنوع • جزوع • قليل الصبر • متواضع •

يثبت الانجليزى حتى على الخطأ اذا تسرع وقاله أو باشره •
والشرقى لا يثبت على الصواب • ولا على طلب حقه •
فيفوز الأول بخير النتائج بفضيلة الثبات •
ويخسر الثانى حقه برذيلة التلون وعدم الصبر •

رأيه فى الأحزاب السياسية فى الشرق

وقال عن الأحزاب السياسية فى الشرق :

« الأحزاب السياسية فى الشرق نعم الدواء ، ولكنها مع الأسف لا تلبث حتى تنقلب الى بئس الداء • نحسن نحن الشرقيين تأليف الأحزاب السياسية ، لطلب الحرية والاستقلال ، وكل العالم لنا أصدقاء ، ونضطر لتركها والكل لنا أعداء •

« والسبب العامل فى ذلك عدم التكافؤ فى القوى بين الأمة وأحزابها السياسية • يقوم الحزب السياسى ، بعنصر ضعيف ، أو بأفراد قلائل بينهم اللسن ، والمحنك ، ويعلنون تفانيهم فى خدمة الأمة لتحريرها من ربقة الاستعباد والاستبداد ، ويسرون خدمة أنفسهم • فتتألف على أهل الحزب القلوب ، وتجتمع حولهم الكلمة، بسوق الضرورة ، وداعى الحاجة ، ويستحسن عملهم الغريب ، ويهوسهم الدخيل ، شأن الحوادث المستجدة ، فى انقلاب الأمم من طور الى طور • فالأمة تتخيل من وراء وعود الحزب سعادة ، ورفاهة ، وحرية ، واستقلالا ، ومساواة ، على أوسع شكل ، قد لا يمكن حصوله فى البعيد الآجل ، فضلا عن القريب العاجل •

« فيؤازرون الحزب بكل معانى الطاعة ، والانقياد ، والنصرة ، والتضحية ... الخ •

« فاذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة ، واستحكم له الأمر ــ ظهرت هنالك فى رؤساء الأحزاب ، الأثرة والأنانية ، ومد حب

الذات عنقه ، فتتقلص من القلوب تلك الطاعة وتنكمش النفوس عن ذلك الانقياد ، وتحصل فى النتيجة النفرة العامة .

« فتضطر عندئذ لترك الحزب ، وينفرط بالطبيعة عقده ، والكل له أعداء » .

وضرب عدة أمثلة ، منها ما حصل فى الأفغان وغيرها وما حصل فى حزب عرابى فى مصر .

ثم قال : « لا ينبغى أن يؤخذ من قولى هـــذا أن لا فائدة من الأحزاب على مطلق الرأى والمعنى ، فان الشرق بعد أن أخنى عليه الدهر بكلكله ، ومرت عليه زلازل العنف والجور ، وأشكال الاستعباد ـ ان هذا الشرق ، وهذا الشرقى ـ لا يلبث طويلا حتى يهب يوما من رقاده ، ويمزق ما تقنع ، وتسربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل ، فيأخــذ فى اعــداد عدة الأمم الطالبة لاستقلالها ، المستنكرة لاستعبادها .

« على هذا الأساس الاجتماعى التدريجى ، لا مانع يمنع الشرقى من الانخراط فى الحزب بعد الحزب ، وأن يقبل من المواعيد ، ما يصدق وما لا يصدق ، حتى يظهر فى الشرق ما ظهر فى الغرب من أفراد يرون الموت فى حياة وطنهم مغنما ، والحياة فى موت وطنهم مغرما .

« حينئذ يكون الشرق قد تسنى له وجود الحزب الذى هو نعم الدواء من داء استعباده ، فيجمع شتات أبنائه الذين كانوا أذلة ، ويصيرهم بنعمة الاخــاء ، والاتحــــاد ، والتعاون أعزة ـ بلادهم لهم وهم لبلادهم نعم الأمناء ، يعملون متضامنين فى صالح مجموعهم ، ونصرة مظلومهم ـ يأخذون ما لهم من حق ، ويؤدون ما عليهم من واجب وهم لا يحزنون » .

مقصـــده السياسى

قال الأستاذ الامام عن مقصده السياسى : « انه كان يسعى لانهاض احدى الدول الاسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام على

شئونها ، حتى تلحق بالدول القوية ، فيعود للاسلام شأنه ، وللدين الحنيفى مجده ، ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية ، وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف الاسلامية ، وله فى عداوة الانجليز شئون يطول بيانها » . انتهى كلام الأستاذ الامام .

نقول وقد دل تاريخ السيد على أنه بذل حياته كلها لبعث روح النهضة والحرية فى أمم الشرق قاطبة .

فهو أول زعيم للحرية فى الشرق ، وأول باعث لنهضته الحديثة، ولئن لم يشاهد ثمار دعوته وجهوده ، فحسبه أنه غارس البذرة الأولى للحركات القومية التى ظهرت فى الشرق منذ نحو تسعين سنة الى اليوم ، والى ما شاء الله ، واذا هو لم يشهد نجاح دعوته قبل موته ، فليس مرجع ذلك اليه ، لأنه قد أدى رسالته على أتم ما يؤديه الزعماء المخلصون ، ولكن عاكسته الأقدار ، واعترضت سبيله عقبات جمة ، بعضها من مكايد الدول الاستعمارية ، وخاصة الدولة الانكليزية ، وبعضها من خذلان ملوك الشرق وأمرائه لدعوته واضطهادهم اياه .

فقد رأيت ما أصابه من الخديو توفيق حين ولى الحكم ، اذ نقض عهده معه ، ونفاه من مصر ، وكذلك فعل معه شاه العجم ناصر الدين شاه ، فقد استدعاه لينتفع من علمه وحكمته ، وما لبث أن تنكر له وحبسه ثم نفاه ، وعرفت ما أصابه فى الآستانة على عهد السلطان عبد الحميد ، مما لا حاجة الى تكراره ، وحسبك أن تذكر أنه كان سجينا فى قصره ، ومحاطا بالعيون والجواسيس ، حتى لاقى منيته فى ظروف تدعو للاعتقاد أنه مات شبه مقتول .

فملوك الشرق وأمراؤه كانوا اذن حربا على جمال الدين ، وكانوا من حيث يشعرون أو لا يشعرون عونا لدعاة الاستعمار فى احباط جهوده ومساعيه ، فليس عجيبا أن لا يشهد السيد نجاح دعوته فى الاصلاح والحرية ، وقد لقى أيضا خذلانا من أكثر الطبقات ،

فكأنه كان يرسل دعوته فى صحراء مقفرة ، ليس فيها سميع ولا مجيب .

ولا مراء فى أنه قد تقدم الشرق وسبقه الى الحياة نيفا ومائة عام ، فلم يلب الشرق نداءه فى حياته ، ولم تظهر ثمار دعوته الا بعد مماته ، وهذا يزيده فضلا وقدرا ، لأنه قام بدعوته فى وقت عز فيه النصير ، وقل المستجيب الى دعوة الحرية والحق .

وقد شعر السيد ، وخاصة فى أواخر أيامه ، بمرارة اليأس والألم مما لقيه من صنوف الاضطهاد ، ونقض العهود والمواثيق ، وكم كان حقيقا بالألم حين يعرض فى ذاكرته مبلغ ما بذله لأمم الشرق من الاخلاص والتفانى فى خدمتها ، ثم ما أصابه من كبرائها وأمرائها من التنكر والجحود ، وما لقيه من مختلف طبقاتها من الأعراض والخذلان .

ذكر عنه الأمير شكيب أرسلان فى ترجمته (١) : « أنه لقيه بالآستانة سنة ١٨٩٢ ، وكان من شدة ما يجد من الألم لحال الاسلام تخطر له خواطر نادرة فى هذا الموضوع . فقال له مرة « قد فسدت أخلاق المسلمين الى حد أن لا أمل بأن يصلحوا الا بأن ينشئوا خلقا جديدا ، وجيلا مستأنفا ، فحبذا لو لم يبق منهم الا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربية تسير بهم فى طريق السلامة » .

وقال له مرة أخرى « لم يبق فى الاسلام أخلاق ، فهذا محمود سامى (البارودى الشاعر الكبير ، رئيس الوزراء أثناء الحوادث العرابية) عاهدنى ثم نكث معى ، وهو أفضل من عرفت من المسلمين (٢) » . وقال له أيضا « ان المسلمين قد سقطت هممهم ،

---

(١) حاضر العالم الاسلامى ج ١ ص ٢٠٥ .

(٢) الاشارة هنا فيما نعتقد الى ما كان من نفى السيد جمال الدين من مصر فقد نفى بقرار من مجلس الوزراء وكان محمود باشا سامى البارودى وزير الأوقاف فى ذلك الحين واشترك فى هذا القرار .

ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شيء واحد فيهم ، وهو شهواتهم » .

بمثل هذه الخواطر كان يعبر السيد عن ألمه من سوء حالة الأمم الشرقية ، وهذا الألم يدلك على مبلغ الشعور الذى تملك لبه ، وأنه كان يشتعل غيرة على الشرق والاسلام ، ويحزن اذ يرى دعوته لم تلق مجيبا ولا نصيرا ، وانك لترى صورة الألم والحزن مرتسمة على محياه فى مرضه الأخير ، وظل هذا الحزن يلازمه حتى فارق الحيـــــاة .

وبعد أن مضت عشرات السنين على وفاته سنة ١٨٩٧ ، لم ينهض واحد من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يبحث عن قبره ويشـــيد له ضريحا يليق بذكرى الرجل العظيم الذى أفنى عمره فى بعث الأمم الشرقية وانهاضها ، وبث روح الحياة والحرية فيها ، الى أن قيض الله رجلا من سراة الأمريكان (المستر كراين) ، فأخذ يبحث ويحقق حتى اهتـدى الى قبر جمال الدين بالآسـتانة سنة ١٩٢٦ ، فأقام عليه شاهدا فخما من الرخام ، نقش عليه اسم السيد ، وأدى بهذا الصنيع واجبا كان يجدر بسراة الشرقيين وعظمائهم أن يؤدوه .

وهذا المظهر المستمر من نكران الجميل يكشف لك ناحية من أسباب التأخر السياسى والاجتماعى فى أمم الشرق قاطبة ، فان الأمم لا تسلك سبيل النهضة الصحيحة الا اذا عرفت أقدار الرجال الذين أفنوا حياتهم فى سبيل مجدها وعظمتها .

بعض كلماته الخالدة

لجمال الدين الأفغانى كلمات خالدة تدل على عظمة شخصيته وايمانه برسالته وقد مر ذكر بعضها فى خلال الحديث عنه وسنذكر هنا أهمها شأنا (١) .

* * *

ـ لا جامعة لقوم لا لسان لهم . ولا لسان لقوم لا آداب لهم . ولا عز لقوم لا تاريخ لهم . ولا تاريخ لقوم اذا لم يقم منهم أساطين تحمى وتحيى آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم . وتنسج على منوالهم . وهذا كله يتوقف على تعليم وطنى . بدايته (الوطن) . ووسطه (الوطن) . وغايته (الوطن) .

* * *

ـ شر أدواء الشرق داء انقسام أهليه . وتشتت آرائهم . واختلافهم على الاتحاد . واتحادهم على الاختلاف . فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا .

* * *

ـ الدخول من باب الذل لا يثمر غير الذل . ومعشر الشرقيين فى الفقر خوف الفقر . وفى الموت خوف الموت .

* * *

ـ اذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك أو المسيطر عن طيب خاطر . وكذلك الاستقلال . بل هاتان النعمتان انما حصلت وتحصل عليهما الأمم بالقوة والاقتدار .

---

(١) كثير من هذه الكلمات وردت فى (خاطرات جمال الدين الأفغانى) لمحمد المخزومى ، وقد أضفنا اليها بعض روائع الكلم التى صدرت عن الحكيم الأفغانى .

– ينتصر الحق ويخذل الباطل وان طاوله الكرم وأمهله العفو ومده الغرور .
– بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته . ووصل العدوان عليهم نهايته.
– الانجليز باقعة العالم وأحبال الحيل .

* * *

– أعتقد أن السجن فى طلب الحق من الظالمين العتاة رياضية . والنفى فى ذلك السبيل سياحة . والقتل شهادة . وهى أسمى المراتب .

* * *

الذل عدو العلم

– الذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان .

* * *

العلم والعمل به

– علم قليل مقيد فى الصدور يعمل به ، خير من علوم كثيرة مسطورة فى الكتب ولكن لا يعمل بها .

* * *

– أضعف ما فى هذا العصر : حق لضعيف لا قوة له . وأقوى شيء : باطل لقوى يجعل باطله حقا .

* * *

– لا خير فى حق لا تدعمه قوة .

* * *

– صاحب الحق قوي ولو كان ضعيفا . والمبطل ضعيف ولو كان قويا .

يمين جمـــال الدين

ـ كان يمينه اذا شاء أن يقسم به قوله : « وعزة الحق . وسر العـــدل » .

* * *

ـ عظمة الملك لا تكون بالتيجان · ووقار العلم لا يكون بالطيلسان·

* * *

ـ « الأكفاء فى العصر لا يكونون على الغالب أصدقاء » ·

* * *

ـ الفقر عدو الفضيلة · والثراء نصير الرذيلة ·

* * *

ـ حقيقة الأنفة . وعزة النفس عدم الاتكال على الناس .

* * *

ـ صاحب القلم لا يحتاج الى عصا .

* * *

ـ الافراط فى التواضع دليل على الادعاء ·

* * *

ـ ما مات واحد فى حب أمة الا وأحبته .

* * *

ـ لا أمة بدون أخلاق . ولا أخلاق بغير عقيدة . ولا عقيدة بغير فهـــم ·

* * *

ـ خير موازين الأمم أخلاقها ·

ـ يقل العلماء متى كثر المتطفلون والمدعون .

* * *

ـ العلم الصحيح كسب صحيح . بل وراثة لنبوة .

* * *

ـ لا مانع من السفور اذا لم يتخذ مطية للفجور .

* * *

ـ خير لون لراية الاستقلال دماء المجاهدين الأبطال .

* * *

ـ من اعتقد أن لا حياة الا هذه الفانيـــة . فقد خسر الأولى والثانيـــة .

* * *

ـ لا يتم عمل والتآلف مفقود . ولا يكون فشل والاتحاد موجود .

* * *

ـ من عجز عن اصلاح نفسه كيف يكون مصلحا لغيره ! .

* * *

ـ أمة تطعن حاكما سرا . وتعبده جهرا . لا تستحق الحياة .

* * *

ـ تحتجب الحقائق عن الملوك بقدر تحجبهم .

* * *

ـ حمال الحطب للاتجار به أنفع من حمال الذهب للادخار .

* * *

فهرس

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ ـ محمد عبده	عباد العقاد
٢ ـ المعتمد بن عباد	على أدهم
٣ ـ جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون	د . على عبد الواحد وافى
٥ ـ ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ ـ معاوية	ابراهم الابيارى
٧ ـ سيد درويش	د . محمد أحمد الحفنى
٨ ـ عبد القاهر الجرجانى	د . أحمد بدوى
٩ ـ عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ ـ عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١ ـ مالك	أمين الخولى
١٢ ـ القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ ـ الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ ـ الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ ـ ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ ـ المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى
١٧ ـ الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ ـ الأصمعى	د . أحمد كمال زكى
١٩ ـ زكريا أحمد	صبرى أبو المجد
٢٠ ـ قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ ـ شكيب أرسلان	أحمد الشرباصى
٢٢ ـ ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ـ أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب
٢٤ ـ عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ ـ الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ ـ الكندى	د . أحمد فؤاد الاهوانى
٢٧ ـ الصاحب بن عباد	د . بدوى طبانه
٢٨ ـ الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ـ أحمد زكى	أنور الجندى
٣٠ ـ حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين

اسم الكتاب		المؤلف
٣١ ـ المثنى بن حارثه الشيباني	...	عقيد محمد فرج
٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى	...	عبد القادر أحمد
٣٣ ـ رشيد رضا	...	د . ابراهيم أحمد العدوى
٣٤ ـ اسحاق الموصلي ..	...	د . محمود أحمد الحفنى
٣٥ ـ أبو حيان التوحيدى ..	...	د . زكريا ابراهيم
٣٦ ـ ابن المعتز العباسي ...	...	د . أحمد امام زكى
٣٧ ـ الزهاوى	...	د . ماهر حسن فهمى
٣٨ ـ أبو العلاء المعرى ...	...	د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ ـ أحمد لطفي السيد ..	...	د . حسين فوزى النجار
٤٠ ـ الجوينى امام الحرمين	...	د . فوقية حسين
٤١ ـ صلاح الدين الأيوبى ...	...	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى	...	محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبد الله بن الزبير ...	...	د . على حسنى الخربوطلى
٤٤ ـ عبد العزيز جاويش ..	...	أنور الجندى
٤٥ ـ ابن رشيد القيروانى ..	...	عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ـ محمد عبد الملك الزيات	...	محمود خالد الهجرسى
٤٧ ـ حفنى ناصف	...	محمود غنيم
٤٨ ـ أحمد بن طولون	...	د . سيدة اسماعيل الكاشف
٤٩ ـ محمود حمدي الفلكي ..	...	أحمد سعيد الدمرداش
٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق ...	...	محمد عبد الغنى حسن
٥١ ـ المهدى العباسي	...	د . على حسنى الخربوطلى
٥٢ ـ الأشرف قانصوه الغورى	...	د . محمود رزق سليم
٥٣ ـ رفاعه الطهطاوى	...	د . حسين فوزى النجار
٥٤ ـ زرياب	...	د . محمود أحمد الحفنى
٥٥ ـ الكندى « المؤرخ » ...	...	د . حسن أحمد محمود
٥٦ ـ ابن حزم الأندلسى	...	د . زكريا ابراهيم
٥٧ ـ ابن النفيس	...	د . بول غليونجى
٥٨ ـ السيد أحمد البدوى ...	...	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ ـ المأمون	...	د . محمد مصطفى هداره
٦٠ ـ المقرى	...	محمد عبد الغنى حسن
٦١ ـ جمال الدين الأفغانى ..	...	عبد الرحمن الرافعى